جائزة الطيب صالح 2017

Arab_Books

ماذا نفعل بدون كالفينو

ضياء جبيلي

قصص قصيرة

دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع
شهريار

ماذا نفعل بدون كالفينو

ماذا نفعل بدون كالفينو- قصص

تأليف: ضياء جبيلي

الطبعة الأولى: 2017

الغلاف: صدام الجميلي

حقوق النسخ والتأليف © دار شهريار - دار الرافدين

Copyright©2017 by Shahrayar Books

العراق / البصرة / العشار / خلف فندق اليرموك / مقابل مقهى الأدباء في العشار

Mob: 009647730800453 - 009647814145195

بريد إلكتروني: safaadhiab@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، من دون إذن خطّي من الناشر.

الترقيم الدولي ISBN: 978-1-77322-329-2

Telegram: @Arab_Books

ضياء جبيلي

ماذا نفعل بدون كالفينو

المجموعة القصصية الفائزة بجائزة الطيّب صالح ٢٠١٧

Telegram: @Arab_Books

المستشفى التشيكي

" إن هو إلا طبيب، ليس أكثر من طبيب "

فرانز كافكا

حدثت هذه القصة في المستشفى التشيكي الخيري في البصرة، بعد حرب ٢٠٠٣.

كنتُ أعمل هناك بصفتي مترجماً، عندما رأيت فرانز كافكا لأول مرة. أو هذا ما كنتُ أظنه في البداية، أن الطبيب التشيكي الجديد، الذي شغل مكان زميل له كان قد غادر إلى براغ، هو نفسه فرانز كافكا الكاتب الشهير. فالشبه بينهما كان كبيراً، إلى درجة أن من يعرف كافكا لن يفرق بينهما.

عندما تعرفت إليه عن قرب، قال إن اسمه كوستكا وهو اسم إحدى شخصيات ميلان كونديرا، وإنه لا يعرف من كافكا هذا سوى معنى اسمه:

" حقاً؟! " قلت له مستغرباً:

" وماذا يعني؟ "

" غراب! " رد كوستكا أو فرانز كافكا بصوت كأنه خرج من قصيدة لإدغار آلان بو:

" تعني غراب! "

Telegram: @Arab_Books

الأمر الذي طالما كان موضع شكوكي طوال عام كامل. إذ لا يعقل أن هناك تشيكياً لا يعرف من هو كافكا. ذلك يشبه أن تدخل حرماً جامعياً في العراق، وتسأل أحد الطلبة إن كان يعرف بدر شاكر السياب. فيجيبك ساخراً: إنه ميكانيكي دراجات هوائية في أبي الخصيب!

كان الأمر مؤرقاً ومثيراً لهواجسي المرضية على ما يبدو. وإلا ما الذي يدفعني إلى التقاط صور تذكارية مع الطبيب كوستكا لأقارنها بصور فرانز كافكا لا لشيء سوى التأكد من أنه هو على الرغم من أن الأخير مات منذ عام ١٩٢٤.

حدث ذلك في احتفال صغير أقامه الطاقم الطبي التشيكي في المستشفى بمناسبة أعياد رأس السنة الميلادية. وبما أني كنتُ مدعواً، بحكم الزمالة التي تربطني معهم، فقد جلبت هدايا صغيرة وقمت بتوزيعها عليهم. وقد أهديت الطبيب كوستكا ميدالية على شكل صرصار. وكانت تلك محاولة استفزازية فاشلة على أية حال، لأنه لم يكترث أو يبدي أدنى انفعال حتى، بل إنه شكرني ببرود لا يخلو من امتنان ولطف. وقال وثمة نصف ابتسامة لمحتها أخيراً على شفتيه بأنه سيحتفظ بهديتي، وأنها ستذكره بي حينما يعود إلى بلده.

الغريب هو أني عندما قارنت بين صوره التي التقطتها معه وبين صور فرانز كافكا المنتشرة في شبكة الإنترنت لم أجد فرقاً بينهما، العينان الغائرتان نفسهما، النظرة الحادة والبعيدة، عظام الوجه البارزة، الأنف الطويل، الأذنان الكنغريتان.

إذن كيف؟ كيف لا يكون هو؟!

تساءلتُ مراراً. كان سؤالاً غبياً، أو هكذا وجدته كلما تذكرتُ أن شيئاً من فرانز كافكا لم يبق حتى الآن. فقط هناك آثاره التي كانت ستُحرق في النهاية لولا أن صديقه ماكس برود خان وصيته.

Telegram: @Arab_Books

إن أكثر ما أزعج الطبيب كوستكا مع مرور الأيام، هو أني صرت أتعامل معه، في أكثر الأحيان التي أتماهى فيها مع فكرة أنه كافكا الحقيقي، بطريقة خارجة عن الزمان والمكان الحاليين.

كنت أسأله عن حبيبته ميلينا، فيجيبني قائلاً إنه من دون حبيبة ولا حتى خطيبة، وأنه لا يفكر بالزواج حالياً. وقلت له يوماً إنه كان يحنق على مدينته براغ دائماً، لكنه وعلى الرغم من ذلك لم يغادرها إلا للعلاج. فقال بينما هو يحك رأسه:

" لا أتذكر أني سئمت من براغ أبداً "

ثم عقّب قائلاً بمحبة بالغة ظهرت على ملامح وجهه أن براغ مدينة عظيمة وأنه يشتاق إليها الآن أكثر من أي شيء آخر.

أما عن علاقته المتوترة بأبيه ورسالته الشهيرة التي كتبها إليه، فقد فنّد كل ما ذكرته عنها. وقال إنه لم يرسل في حياته رسالة إلى والده، لأنه ببساطة مات منذ أن كان في الثانية من عمره.

أما الأسئلة المقتضبة التي كنت أوجهها إليه بلجاجة مزعجة مثل:

هل تحول غريغوري سامسا إلى صرصار أم خنفساء؟

لماذا أردت أن تُحرق أعمالك؟

هل أنت سوداوي حقاً وتكره الحياة؟

لماذا تبدو متناقضاً في مشاعرك العاطفية؟

هل بصقت كثيراً من الدم قبل أن تموت؟

Telegram: @Arab_Books

كل هذه الأسئلة وغيرها كان الطبيب كوستكا يظهر انزعاجه منها، حتى أنه سألني يوماً عما إذا راجعت طبيباً نفسياً.

" لا.. لم أراجع "

أجبته فقال:

" إذن.. انصحك بأن تجرب ذلك قريباً وتعرض نفسك على طبيب نفسيّ. لأنك تبدو وأنت على هذا الحال بحاجة إلى رعاية نفسية. وحسب رأيي كطبيب أنت مصاب بمرض الاضطراب الوهامي، الأوهام المتكلفة تحديداً! "

" حقاً؟ " سألته. لكنه غادر منزعجاً.

كنا نجلس في بهو الأطباء، وكنا نتكلم بإنكليزية قد يطعمها هو أحياناً، على نحو لا إرادي، بمفردات تشيكية أو فرنسية ثم سرعان ما يعود ليطلقها بإنكليزية مفهومة على نحو جيد.

كانت طريقة تعاملي معه افتراضية أو ربما تخييلية دائماً ما تقودني إلى الظن بأن هذا الرجل، في حال أنه ليس كافكا، قد خرج من دفتي كتاب له. الطبيب الريفي في إحدى قصصه مثلاً، أو جوزيف ك في رواية المحاكمة، أو ربما غريغوري سامسا. لكنني سرعان ما أعود إلى الواقع. ليس الواقع بحذافيره، إنما الواقع المفترض الذي يقول إن الطبيب كوستكا هو نفسه فرانز كافكا الكاتب التشيكي. قبل أن أظهر بمظهر الشخص المضحك الذي ما زال يعيش على هذا الافتراض المؤرق، ويسأل زملاء الطبيب من أبناء بلده في المستشفى عما إذا كانوا يرون ما يراه هو:

" وماذا ترى أنت؟ " يسألني أحدهم في مختبر التحليلات.

" أرى فرانز كافكا! " أجيبه.

Telegram: @Arab_Books

" واوو فرانز كافكا؟! "

يقول بنبرة تعجب. وبدلاً من أن يؤكد أو ينفي فرضية أن الطبيب كوستكا هو فرانز كافكا، يسألني كيف تسنى لي أن أتعرف إلى كافكا، ويبدو في أثناء ذلك كما لو أنه يتحدث إلى كائن خارج حدود التاريخ ما زال يظن أن الأرض مسطحة والقمر قطعة من الجُبن.

انتهى عام المعايشة الطبية لكوستكا في البصرة، وكان على وشك المغادرة إلى بلده. فأردت إخضاعه لاختبار صغير. جلبتُ معي، إلى المستشفى، في اليوم التالي صرصاراً، كنت قد اصطدته وحبسته في زجاجة وتركته يموت. دخلت إلى غرفة كوستكا ووجدته جالساً إلى مكتبه الصغير بعد أن جمع أغراضه وتهيأ للمغادرة. أخرجت الحشرة من الزجاجة ووضعتها أمامه على سطح المكتب. إلا أن أي ردة فعل يمكن أن تبين إنه فرانز كافكا حقاً لم تظهر عليه. كان يبتسم بازدراء فحسب، قائلاً بينما هو ينظر بعطف مبالغ إلى الحشرة الميتة أمامه:

" لقد ارتكبت خطأ فادحاً يا صديقي ! "

شعرت بالخجل وأنا اصطدم بنظرته المؤنبة، وقد اقتنعت تماماً أنه ليس فرانز كافكا. وبَّخت نفسي على استيهاماتي الجنونية. اعتذرت من الرجل وصافحته مودعاً وغادرت الغرفة، من دون أن ارفع الصرصار القبيح من أمامه على المكتب. فاتني أن افعل ذلك ولم أتذكر إلا في اليوم التالي.

دخلت إلى غرفة كوستكا. اقتربت من المكتب الصغير. فوجدت الصرصار في مكانه، لكني فوجئت إنه قُلب على قفاه، تماماً كما وصفه كافكا في الرواية!

عندئذ، عرفت ما هو الخطأ الفادح الذي ارتكبته وأشار إليه كوستكا.

... عفوا، فرانز كافكا!

Telegram: @Arab_Books

الطفل الطائر

لم يكف عن الزقزقة إلا بعد أن ألقمته أمه، التي كانت حاملاً بطفلها الثاني، حلمة ثديها العامر باللبن. لكنه لم يمص منه قطرة واحدة. وعلى الرغم من ذلك، كان الطفل المدعو نادر هادئاً كملاك. ينظر إليها بعينين عسليتين صافيتين. وبين لحظة وأخرى يحرر ذلك النتوء المخروطي، بلونه البني الغامق من بين شفتيه، ليزقزق بوجهها لثانية، يبتسم، ثم يعود إلى ما كان عليه، حتى يغفو، أو يتظاهر بذلك.

تضعه أمه في مهده الخشبي. تخرج من الغرفة. تمشي على أطراف أصابعها، لكي لا توقظه. لكنه لم يكن نائماً على أية حال، فما أن تناهى صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب إلى أذنيه، حتى فتح عينيه ونهض من مكانه في المهد. تثاءب، أفرغ ما في جوفه من ذروق، خفق بجناحيه الصغيرين، وطار إلى النافذة.

كانت النافذة مغلقة. شعر نادر بالحزن، بينما هو ينظر، من وراء الزجاج القاسي، إلى الأولاد في الشارع. كانوا يلعبون بمرح. ود لو يلهو معهم، ويقضي بعض الأوقات السعيدة. لكن أمه لن تسمح له بذلك. تقول إنها تخشى عليه، إذ لا يجب الوثوق برفقة أولاد الشوارع. لهذا السبب تغلق عليه جميع المنافذ لكي لا يخرج ويجلب لنفسه ولذويه المتاعب.

Telegram: @Arab_Books

فكَّر نادر: ما الذي يفعله لينفذ إلى الخارج؟ فهو لا يستطيع حمل الأشياء بجناحيه، وإلا لم يكن ليمضِ المزيد من الوقت في التفكير قبل أن يعمد إلى كسر زجاج النافذة بمزهرية أو أي شيء آخر ليتمكن أخيراً من الخروج.

شعر بالعجز، بالإحباط والملل من قضاء الوقت كله بين جدران الغرفة الكئيبة التي تقع في الطابق الثاني، بصحبة دمية وحيدة لا تجيد سوى الصراخ من سرتها كلما داس عليها بقدمه أو رفسها وارتطمت بالجدار. راح يجول بعينيه الملونتين الحزينتين في أرجاء الغرفة، فلم يرَ شيئاً خارج المألوف. الفوضى الساكنة نفسها. الجدران المتشققة الجرداء. الأرض المكسوة بالذروق. الفراش الذي تنبعث منه رائحة الريش والنوم الممل. والصورة الفارغة المؤطرة والمعلقة على الجدار منذ فترة طويلة، والتي راح ينظر إليها بخوف وكآبة. ليس هناك من شيء يمكن أن يحدث في عالم هذه الغرفة، هذا القفص الكبير، المكان البليد البارد والمعتم، ويكون في النهاية مدعاة للبهجة. كل شيء يبدو روتينياً، مؤرقاً، وباعثاً على الضجر. في الوقت الذي تستمر الحياة في الخارج، بحركة دائمة دائبة، خصوصاً بالنسبة للأولاد الصغار الذين يملؤون العالم بلعبهم وصخبهم دون كلل، قبل أن ينصرفوا إلى بيوتهم في آخر النهار، يسابق أحدهم الآخر، وصدى ضحكاتهم يتردد في آخر الزقاق.

وبينما هو يفكر بطريقة يستطع التسلل من خلالها إلى خارج الغرفة، وعلى نحو مفاجئ، حدث أمر لم يكن في الحسبان. فقد سمع نادر صوت تهشّم زجاج النافذة بحجارة يبدو أن أحد الأولاد في الشارع قذفها من مقلاعه وكادت تصيبه.

كان حدثاً سعيداً، قدراً مبهجاً أتاح له الفرصة في أن ينفذ إلى العالم الخارجي لأول مرة في حياته. فخفق بجناحيه فرحاً وأطلق زقزقة طويلة عبّرت عن امتنانه للولد الذي أرسل حجارته الطائشة لتهشّم زجاج النافذة وتفتح أمامه ثغرة يغادر من

Telegram: @Arab_Books

خلالها عتمة الغرفة الكئيبة إلى نور العالم الذي طار إليه أخيراً وراح يملأ فضاءه برفيفه وتغريده.

وما زال نادر يجوب سماء المدينة، ويحط على البنايات والأبراج والأشجار العالية وهوائيات التلفاز كلما أحس بالتعب من الطيران، ويكتشف العالم الأرضي من علوّ، ويتعرف على أنواع الطيور التي يصادفها في طريقه، عصافير، حمائم، غربان، قبّرات، نوارس، حتى لمح من بعيد، هناك في الأسفل، أولاداً يلعبون في الشارع، فراح يحوم فوق رؤوسهم كطائرة تبحث عن مدرج لتهبط إليه، ويزقزق بصوت عالٍ كما لو أنه يحتفي بهم قائلاً: انظروا يا أصدقاء هذا أنا نادر، الطفل الطائر، طرت أخيراً وجئت لألعب معكم.

لكن، ما أن رأى أولئك الأولاد نادر يطير فوقهم ويرفرف بسعادة، وكان على وشك الهبوط في تلك الأثناء، حتى جنّ جنونهم.

راحوا يزعقون ويتقافزون ويصرخون ويشيرون بأيديهم ويُلوّحون وأعينهم تلصف بالدهشة، فقد أذهلهم مشهد الطائر العجيب الذي يحلق في سمائهم، وبدا من الواضح أنه يريد الهبوط.

هذا يقول أنه لقلق، وذاك يقول أنه بجعة، وآخر يقول أنه تنين.

لكنه، ما أن اقترب وكاد يلامس الأرض بقدميه، حتى استقبله أولئك الأولاد أسوأ استقبال. استلوا مقاليعهم من تحت بيجاماتهم البازة المقلمة، وأمطروه بالحجارة التي كانت تنطلق نحوه بشكل كثيف حتى كادت تصيبه وتسقطه أرضاً، لكنه راح يناور، بينما الريش يتطاير من جناحيه وذيله، حتى أفلت من قبضتهم بصعوبة وطار بعيداً عنهم. حط على حافة إحدى البنايات العالية وشرع بالبكاء بينما هو ينظر إلى الأسفل بعينين دامعتين، حيث بدأ الأولاد بالانسحاب إلى بيوتهم. كان مليئاً بالغضب، ويتساءل بحرقة عما إذا كان يفضل العيش حقاً في

Telegram: @Arab_Books

هذا العالم الذي استقبله بالحجارة، وكان على وشك القضاء عليه ظناً منه أنه لقلق أو بجعة أو تنين.

كان يشعر بالإرهاق الشديد، وبألم في جناحيه. لقد أثخنوه بالجراح، وربما لن يكون قادراً على الطيران قبل حلول الغروب. فهبط على سطح البناية ليأخذ قسطاً من الراحة قبل العودة إلى البيت. غفا وحلم بالمشهد نفسه، حين استقبله أولاد الشارع بمقاليعهم. إلا أنهم أمسكوا به هذه المرة. انتزعوا ريشه، وملّحوا جسده، وحشوا جوفه بالرز والخضار والتوابل، وكانوا على وشك إدخاله الفرن لشيّه لولا أنه استيقظ على وقع قطرات المطر الذي بدأ بالهطول في ذلك الحين. وعلى الرغم من ذلك عاد نادر إلى أدراجه.

حطّ على حافة النافذة، متعباً، لاهثاً، نادماً على خوضه تلك المغامرة، ليُفاجأ هناك، بعد وصوله مباشرة، بمن يمسكه أخيراً.

" أين كنت يا ولد؟ " صاحت الأم بوجهه. نهرته بينما هي تهزه بعنف:

" ألم أحذرك من الخروج إلى الشارع؟ "

لم يرد الطفل الطائر بكلمة واحدة. كان ما يزال يلهث. بالكاد يلتقط أنفاسه. في حين كانت الأم، الحامل في شهرها التاسع، تمضي في توبيخه:

" حسناً.. أنا أعرف شغلي معك، أيها الطائر المتمرد. إن لم أنتف لك ريشاتك، لن أكون أبنة والدي. تعال إلى هنا! "

وفعلاً، شرعت تنتف ريشه واحدة تلو أخرى إلى أن عرّته تماماً، وراحت تسأله عن آثار الجروح والندوب التي تملأ جسده وسط توبيخ وتعنيف شديد، ثم قادته من جناحه الأيمن إلى أحد الجدران في الغرفة. رفعته إلى صورة مؤطرة لطفل في

Telegram: @Arab_Books

عامه الأول ما زالت معلقة هناك منذ فترة طويلة، وقد أُلصق شريط من الساتان الأسود في زاويتها اليمنى.

" طيور جنّة آخر زمن! "

قالت الأم وهي تحشره خلف زجاج تلك الصورة.

الصورة الكئيبة التي سيضل يراقب من خلالها في القابل من الأيام تلك المرأة وهي تعمل من ريشه المنتوف وسادة لطفلها القادم.

Telegram: @Arab_Books

المُتهجّي

لم يمضِ الكثير من الوقت، منذ أن تخرج ربيع؛ بائع حلوى شعر البنات، من أحد مراكز محو الأمية.

قبل ذلك، لم يكن يعرف من القراءة شيئاً، كما لم يكتب قبل دخوله محو الأمية كلمة واحدة صحيحة، بما في ذلك اسمه، فقد ترك مقعد الدراسة في فترة مبكرة، ولم يتعلم شيئاً بعد، ثم انغمس بعدها في وحل الظروف الحياتية الصعبة بعد وفاة والده. وهو منذ ذلك اليوم يتمنى لو تسنح له فرصة التعلّم، حتى حصل عليها مؤخراً.

وطوال مدّة التعليم، حاول ربيع أن يوفق بين عمله المتواضع وبين التعليم، وقد نجح في ذلك ومضى في طريقه، غير عابئ بمراهنات رفاقه على نكوصه في النهاية وتخليه عن الأمر. كان مصراً على أن يتعلّم، تسنده بذلك وتقف إلى جانبه زوجته التي لم تكن أفضل حالاً منه. وكان قد كافأها فيما بعد عندما جعل اسمها أول كلمة يكتبها، ثم وعدها بتلقينها دروساً في القراءة والكتابة في حال أتقنهما هو في القابل من الأيام.

ورغم أنه يكاد يتجاوز العقد الثالث من عمره، لكنه يبدو سعيداً الآن، بعد أن صار بمقدوره تهجّي الكلمات حرفاً تلو آخر، ليتمكن في النهاية من قراءة ما يقع

Telegram: @Arab_Books

عليه نظره من الأخبار العاجلة، والإعلانات، وواجهات المحال التجارية، والشركات ودور السينما والمستشفيات.

وكثيراً ما يتجوّل ربيع بعربته الجوالة في الأزقة والأحياء والأسواق، في الأيام العادية وفي أثناء الأعياد والعطلات. فيتحلّق حوله الأطفال الذين يهرعون لشراء غزل البنات. قد يشاكسه بعضهم، في حين يعمد البعض الآخر منهم إلى سرقة تلك المادة السكرية المنفوشة ذات اللون الوردي الغامق التي تسمى في العراق: شعر بنات. الأمر الذي دائماً ما يثير حنقه، فيبدأ بتفريقهم ويستعمل العصا والشتائم إذا ما تطلب الأمر. قبل أن يضطر إلى مغادرة المكان وهو يشكو من وقاحة أولئك الأطفال المشاكسين في المناطق الشعبية المأهولة، والذين دائماً ما يتبعونه إلى أبعد نقطة.

صار ربيع يتهجى كل ما يصادفه في الطريق من كتابات. وكان يحمل معه في العربة بعض كتب تعلم القراءة للمرحلة الابتدائية، يخرجها ويقرأ فيها كلما وجد متنفساً ليفعل ذلك. وما زال يأمل في أن يتمكن من متابعة دروس أولاده في المستقبل وتدريسهم، لكي لا يحملوه عبأ جهلهم حينما يكبرون.

في الفترة الأخيرة، صار ربيع يتردد بعربته الجوالة على مستشفى الأطفال، لوفرة الرزق هناك. مروّجاً لبضاعته بطريقة كوميدية طالما جذبت إليه الكثير من زبائنه الأطفال. كما أن أحداً لا ينافسه في ذلك المكان، فأغلب الباعة هناك يبيعون أشياء لا تمت لبضاعته بصلة، كالسندويتشات ولعب الأطفال والعصائر وعبوات الماء والمشروبات الغازية والحلوى والفاكهة.

وبالإضافة إلى ذلك، فالأطفال المرضى مدللون، ولا يمكن لأب أو أمّ الامتناع من شراء كيس من غزل البنات للابن أو الابنة إذا رغب أحدهم بذلك،

Telegram: @Arab_Books

خصوصاً وأنه يعرف حب الأطفال لهذا النوع من الحلوى الشعبية التي قضى عمره في بيعها.

وحدث في أحد تلك الأيام، أن اشترت منه امرأة كيساً من غزل البنات لابنتها الصغيرة ذات السنوات السبع، قبل أن تدخل بها إلى المستشفى عبر بوابة أحد الأقسام. وقد لاحظ ربيع كم هي جميلة وبريئة تلك الطفلة. لكنها أيضاً كئيبة ولا تبدو على ما يرام. وإلا لم تكن لتصطحبها أمها إلى مستشفى الأطفال. كذلك لاحظ أنها ذات شعر طويل يميل إلى الشقرة كانت الأم قد عقدته على شكل ذيل حصان. وقد أحب ربيع تلك التسريحة وعزم في سره على إخبار زوجته بأن تجعل لابنتها المستقبلية ذيلاً كذيل تلك الفتاة التي ود لو يعرف اسمها، لكنها ذهبت الآن، وإلى أن تنتهي مراجعتها مع والدتها في المستشفى ربما يكون هو في البيت. وكما لو أنها تعلم بما اختلج في ذهنه، كانت تلك الطفلة الصغيرة قد عمدت إلى حل عقدة شعرها وأطلقته، فانساب على ظهرها وكتفيها، وطيّرت الريح خصلات منه في مشهد حلمي جميل أذهل ربيع الذي خيّل له أنه شم رائحة ياسمين في ذلك الحين.

في البيت حدّث ربيع زوجته عن تلك الفتاة الصغيرة. ثم شغله التفكير بها قبل أن ينام. لم يجد تفسيراً لمشاعره الأبوية تجاهها سوى حبّه للفتيات الصغيرات، إذ ما زال يمنّي النفس بأن يُرزق بطفلة جميلة بعد خمسة ذكور أنجبتهم زوجته طوال الأعوام العشرة الماضية.

" سأعمل من شعرها ذيل حصان "

قال بصوت ناعس فضحكت الزوجة قائلة:

" إذا رأيتها في الحلم قل لها إن أمك تقول تعالي بسرعة "

Telegram: @Arab_Books

ثم تمنت له ليلة هانئة.

في اليوم التالي، أقبلت المرأة نفسها لتشتري منه كيساً آخر، ثم عادت مسرعة إلى المستشفى. وقد لاحظ ربيع أن الفتاة الصغيرة لم تكن معها هذه المرة، إذ يبدو أنها حصلت على إقامة في المستشفى لغرض العلاج. وهو ما توقعه على أية حال، وهو أن الطفلة تعاني من مرض ما، ربما الربو، فقد لاحظ أن تنفسها لم يكن طبيعياً. آلمه الأمر كثيراً، فهو لا يحتمل أوجاع الأطفال، ثم تمنى أن تتماثل للشفاء في أقرب وقت. وكان على وشك أن يسأل الأم عن صحة ابنتها، لكنه تردد في اللحظة الأخيرة، وقال في نفسه: غداً سأفعل.

في اليوم التالي، عادت المرأة لتشتري كيساً آخر من غزل البنات لابنتها فاستغل ربيع الفرصة وسألها، لكنها لم تجبه. وكان قد فعل ذلك في المرات التالية من دون أن يحصل على إجابة شافية. قرر بعدها ألّا يعود إلى مضايقتها مجدداً بسؤاله. ففي كل مرة تتردد عليه لشراء غزل البنات يعيد عليها السؤال نفسه:

كيف حال ابنتك سيدتي؟

هل تعاني الطفلة من شيء؟

لا ترد عليه. فقط تسلمه ثمن غزل البنات بتجهّم وتعود إلى المستشفى، ولا يراها بعد ذلك إلا في صباح اليوم التالي.

بعد فترة ليست بالقصيرة، خرجت المرأة من المستشفى، وكانت برفقة ابنتها التي كانت تضع كمامة على أنفها وفمها وتبدو في غاية الهزال. وقد لاحظ ربيع أن شيئاً تغيّر فيها ولم يعد في مكانه.

لكن.. ما هو يا ترى؟

Telegram: @Arab_Books

" شعرها! "

قال بينما هو ينظر إلى الطفلة التي كانت ترسل إليه نظراتها من بعيد:

" ماذا حدث لشعرها؟! "

تساءل مجدداً، بذهول ومرارة. وراح ينظر إلى شعر الطفلة الذي تحوّل من اللون الأسود المطعم بشقرة خفيفة إلى اللون الوردي الغامق.

كان شعراً وردياً حقاً ومنفوشاً يشبه تماماً غزل البنات الذي يبيعه.

" لا بد أنه دبق الآن! "

ردد ربيع في نفسه، والتفت نحو واجهة القسم الذي خرجت منه المرأة وابنتها، وراح يتهجى الكتابة في أعلى البوابة:

" (ق) و(س) قس و(م) قسم

(أ) و(ل) الـ و(س) السـ و(ر) السر و(ط) و(ا) و(ن) السرطان..

قسم السرطان! "

شعرية لانتشو بلحم البقر

"يؤمن المزارعون الصينيون بوجود طائر يأتي بالمطر، يسمونه شانغ يانغ، ليس له سوى قائمة وحيدة. ففي الأزمنة الغابرة كان الأطفال يقفزون على قدم واحدة، منشدين: سوف يهطل المطر لأن شانغ يانغ يقفز، إذ قيل أنه يشرب مياه الأنهار لكي يرش بها الأرض مجدداً!"

كتاب المخلوقات الخيالية – بورخس

ما أن وصل أكرم إلى مدينة قوانغتشو الصينية، حيث كان ضمن الوفد العراقي المشارك في دورة الألعاب الآسيوية للمعاقين، حتى تذكر تلك الأسطورة التي سمعها من جده الحاج عبد الله شو عشرات المرات، منذ أن كان في الخامسة من عمره. لكنها جاءت – بعد ثلاثة عشر عاماً – بمثابة مواساة بائسة يقدمها الجد الحنون لحفيده الجندي الذي فقد قدمه اليسرى إثر انفجار لغم على الحدود العراقية الكويتية في حرب عام ١٩٩١.

***

منذ أول يوم دخل فيه شو يانغ القادم من مدينة لانتشو الصينية إلى أصفهان، سأل ثلاثة صبية كانوا يلعبون في حديقة الزهور المأهولة بأسراب الفراشات، عن

أفضل طعام ملائم للأصفهانيين، فقال الأول البطيخ، وعندما سأله شو عن السبب في تفضيلهم لهذه الثمرة أجابه:

" لأنها حلوة "

وانبرى الثاني قائلاً:

" وبذورها تُزرع "

في حين قال الثالث وهو يشير إلى حمار يجر عربة مليئة بالبطيخ الأصفر الفاقع كانت في طريقها إلى السوق:

" ونطعم قشورها للدواب "

فزمّ شو شفتيه وهزّ رأسه وقد ندت منه أمم قصيرة، انصرف بعدها محدثاً نفسه:

" حقاً أنها أمة شاعرة! "

قبل أن يسمع أحد الأولاد الثلاثة وراءه يهتف بصوت بالكاد يُسمع:

" وداعاً أيها التنين! "

لم يلتفت بينما هو يقول ملوحاً بيده من الخلف:

" وداعاً أيها المجوسي "

بعد أسبوعين من التجوال بين المدن الإيرانية وصل شو إلى عبادان، وعبر منها شط العرب إلى البصرة. كان يوماً من أيام نيسان، وكان الوقت ظهراً عندما رأى هناك مجموعة من الصيادين يتناولون غداءهم على مقدمة أحد زوارق الصندل الراسية بمحاذاة الجرف. اقترب منهم، وسألهم بلغة عربية ركيكة تعلمها من

Telegram: @Arab_Books

طباخ صيني مسلم في لانتشو يدعى ما باو زي، عما يفضله سكان البصرة من طعام. عندئذ، أجابه أحدهم وكان شيخاً ذو سحنة لوّحتها الشمس حتى سالت طيبتها السمراء، كما يسيل الدبس من عذق تمر يتدلى من نخلة برحي على وجه النهر:

" كل الطعام هنا مبارك "

ثم دعاه إلى مشاركتهم الغداء وألح على ذلك زملاؤه، بل إن صياداً منهم وثب إلى الضفة وأخذ بيد شو واقتاده إلى مقدمة الزورق ليأكل معهم، ولم يكن يعوزه في تلك الأثناء سوى أن يلقمه أحدهم طعامه، فحدث نفسه بسعادة غامرة، بينما هو يوزع ابتسامته على مضيفيه السمر الذين ملؤوا سفرتهم بالسمك المشوي والبصل والخبز والتمر والمخلل:

" هنا، في هذه المدينة سيكون مطعمي "

في البصرة، في الجزء الذي استحدثه الانكليز وجعلوه مرفأ لهم باسم مارجيل، كانت هناك منطقة تُدعى تشاينا كمب، يسكنها العمال الصينيون الذين جاؤوا مع قوات الاحتلال البريطاني منذ عام ١٩١٤، حيث أنشؤوا هناك بناء تذكارياً على الطراز الصيني أطلق عليه اهل البصرة شفقة العامل.

هناك التقى شو بأبناء جلدته، وسكن معهم فترة من الزمن، كان يخطط خلالها لافتتاح مطعما للأكلات الصينية. ولم يمضِ المزيد من الوقت حتى استأجر دكاناً في سوق الهنود بالعشار، وافتتحه في غضون اسبوعين، علق في أعلاه لوحاً كتب عليهما " مطعم التنين الصيني " باللغة العربية والصينية. إلا أن أحداً لم تجذبه أطباق الشاندونغ والسيتشوان والفوجيان التي كان يطهوها، باستثناء جنديّ بريطاني أو اثنان كانا يزوران المطعم بداعي الفضول. وأما أبناء جلدته من الجالية الصينية فلم يكن لديهم الوقت الكافي ليتركوا أشغالهم في الميناء، ويقطعوا المسافة

Telegram: @Arab_Books

بين مارجيل والعشار ليتناولوا طبقاً حرّيفاً وحامضاً يتكون من زعانف قروش محمّرة يحصل عليها من الصيادين البصريين مقابل أثمان زهيدة. استمر الحال على ما هو عليه قرابة الشهرين، فما يطهوه في النهار يرمي به في الليل، ولم يكن يجني من كل ذلك العناء سوى المزيد من الخسائر وتسمين كلاب العشار السائبة.
وفي أحد الأيام، بينما هو يستمع إلى تهكم الجنديين البريطانيين اللذين كانا يأكلان بتذمر مصطنع روبيان مع سمك محمر بصلصة طماطم، تذكر شو جواب الشيخ صياد السمك البصري على ضفة الشط يوم دعاه إلى الغداء: "كل الطعام هنا مبارك" ففهم في حينها معنى أن يكون الطعام مباركاً. فاعتكف في حجرته الصغيرة على سطح أحد بيوت مواطنيه في "شفقة العامل" ليخرج بعد ثلاثة أيام بهيأة جديدة، وقد تخلى عن معتقده الكونفشيوسي واعتنق الإسلام، وغير اسمه ليصبح عبد الله شو، إذ لم يأخذ من اسمه الصيني سوى اسم العائلة. صار يرتدي الدشاديش الفضفاضة ويلف رأسه بكوفية، الأمر الذي أزعج سكان تشاينا كمب من ذوي الأعين الضيقة فطردوه، واضطر بعدها إلى السكن في نزل رخيص يقع على مقربة من مطعمه الذي وظف فيه مساعداً محلياً ستيني العمر، وغير اسمه من مطعم التنين الصيني إلى مطعم شعرية لانتشو بلحم البقر، وهو الطبق الذي تعلمه من استاذه المسلم ما باو زي في لانتشو، وكتب تحت واجهة المطعم: لحم بقر حلال.

خلال أيام تكالب الزبائن على المطعم، ولم يعد الجنديان البريطانيان يتهكمان بعد أن تذوقا طعم الأكلة الجديدة، فراقت لهما، وراحا يروجان لها بين أفراد زملائهم الجنود الذين صاروا يزاحمون الزبائن من سكان المدينة، فكانوا يشكلون معاً طابوراً طويلاً أمام المطعم، من أجل الحصول على طبق شعرية لانتشو بلحم البقر المذكى واللذيذ.

Telegram: @Arab_Books

بعد عامين وسّع عبد الله شو مطعمه وجلب ثلاثة عمال آخرين، وازدهرت أكلته وذاع صيتها في أنحاء المدينة، واستمر ذلك لعدة أعوام، فصار سكان تشاينا كمب ينظرون إليه بعين الحسد حتى غادروا البصرة بعد انتهاء خدمتهم، في حين بقي هو الصيني الوحيد المهدد بالترحيل في أي وقت إن لم يحصل على الجنسية العراقية، خصوصاً بعد أن راجت وشايات أصحاب المطاعم الذين شعروا بالتهديد. حينئذ، خطرت له فكرة التزوج بامرأة عراقية، وحصل ذلك بعد فترة قصيرة حين خطب فتاة تدعى وردة وهي ابنة مساعده الستيني. تزوجها وعاشا في بيت صغير في تشاينا كمب، الحي الصغير الذي تركه الصينيون لعمال الموانئ. وبذلك حصل عبد الله شو على الجنسية، وأنجب من زوجته طفلاً وحيداً حمل ملامح العمومة بشكل تام، فظهر بنموذجه الصيني، كما لو أن تنيناً بصقه.

وفي أحد الأيام، استغل عمال المطعم ذهاب عبد الله شو إلى الحج، وتواطؤا مع أصحاب المطاعم المتضررة من طبق شعرية لانتشو ذائع الصيت، فقاموا بعمل تلك الأكلة بلحم الحمير بدلاً من لحم البقر، فأُبلغ عن ذلك وداهمت الشرطة المكان، وعثروا في المخزن على اكياس مليئة بالحشرات المجففة من صراصير وجراد وخنافس. فأُغلق المطعم واعتُقل عبد الله شو فور وصوله إلى ميناء المعقل قادماً من الحج، وأودع السجن، ولم يخرج منه إلا بعد سنتين، ليُحرم من مزاولة المهنة نفسها. وهو منذ ذلك اليوم يمارس أعمالاً متفرقة قبل أن يحصل في النهاية على وظيفة عامل بصفة وقتية في مصلحة الموانئ القريبة من بيته.

ولا يزال عبد الله شو يعيش أعواماً رتيبة ومملة، ويحن إلى مطعمه، وإلى ذلك الشغف الذي كان يتبّل به طبق شعرية لانتشو بلحم البقر، حتى تزوج ابنه وأنجب له أربعة أحفاد، ذكر أسماه أكرم وثلاثة إناث. حينئذ بدأت حياته تتغير بينما هو يرى أربعة تنانين تملأ البيت بالمرح وتجدد إقباله على الحياة. فكان يجمعهم حوله ويروي لهم حكايات من الصين. أساطير وخرافات ونوادر وتسليات.

Telegram: @Arab_Books

وفضلاً عن تعليمهم اللغة والأبراج الصينية، كان يحثهم على وضع عيدان الأكل بين أسنانهم من أجل الحصول على ابتسامة صينية مثالية.

ترعرع أكرم في كنف جده منذ أن ولد في عام ١٩٧٣، خصوصاً في سنوات الحرب العراقية الإيرانية التي كان والده يقضي خلالها خدمته الإلزامية في الجيش. فتعلم على يديه مبادئ الكونغ فو، وتعرف على تاريخ الصين والوصفة السرية لطبق شعرية لانتشو بلحم البقر، لكنه لم يكن حاذقاً بما يكفي لمواصلة الدراسة، فتركها في وقت مبكر وراح يقضي وقته بالعمل لإعانة الأسرة، وما يتوفر من فراغ يقضيه بممارسة هوايته المفضلة- الكونغ فو- في إحدى قاعات التدريب التابعة لنادي الميناء الق يب من "شفقة العامل" حيث تسكن عائلته، إلى أن تلقفه الجيش قبل أيام من اندلاع حرب الخليج الثانية، فالتحق إلى أحد مراكز تدريب المشاة في البصرة، ومنها إلى الحدود مع الكويت، حيث انفجر لغم أرضي تحت قدمه اليسرى، فاضطر الأطباء إلى بترها من فوق الركبة. وكان وجه جده الكونفشيوسي التسعيني هو أول ما رآه حينما أفاق من إغماءته. كان يضع واحداً من عيدان الأكل بين أسنانه، كما كان يعلمه في صغره لكي يحصل على ابتسامة صينية مثالية، وينظر إليه بعينين ازداد ضيقهما. وللمرة الألف ربما، راح يروي له أسطورة شانغ يانغ ذو القدم الواحدة، وكيف أنه حُبي بموهبة رش الأرض بالماء على الرغم من عوقه.

مات الحاج عبد الله شو بعد ثلاثة أسابيع، وقد ترك موته الأثر البليغ في نفس حفيده الذي لم يعد قادراً على ممارسة هوايته المفضلة، لكنه لم يكف عن حضور مباريات نادي الميناء بكرة القدم، وممارسة بعض تمارين ذوي الاحتياجات الخاصة، خصوصاً رياضة رفع الأثقال التي برع فيها، وكان يفرغ كل غضبه واحباطه وحزنه من خلالها.

***

Telegram: @Arab_Books

انتهز أكرم فرصة وجوده في الصين وغادر قوانغتشو إلى مدينة لانتشو بعد انتهاء منافسات مسابقة رفع الأثقال. كان من السهل عليه الاندماج مع الصينيين ما دام أن سحنته توحي أنه واحدا منهم، فضلاً عن إجادته اللغة الصينية بفضل جده الحاج عبد الله شو. لفت انتباهه هناك- في لانتشو مسقط رأس جده- ثلاثة أشياء: نهرها الأصفر ومياهه الصاخبة التي تجري على إيقاع النواعير القديمة، حاملة على سطحها أطواف مصنوعة من جلود الخرفان. ومجلة "القراء" غذاء أهل المدينة الروحي التي أسسها قبل أكثر من عقدين مجموعة من المختصين في العلوم. والشيء الثالث الذي يمكن ملاحظته على نحو لافت، هو الدعاية المنتشرة في أرجاء المدينة لطبق شعرية لانتشو بلحم البقر الذي ما زال يتفنن بإعداده أحفاد ما باو زي حتى ذاع صيته على طول البلاد وعرضها، وصار بالإمكان رؤية صورة شعرية لانتشو بأنواعها الخمسة ذات الألوان المميزة: الصافي، والأبيض والأحمر والأخضر والأصفر في كل مكان، حتى على قمم جبال تايشان.

وبفضل تعاطف وطيبة سكان لانتشو وصل أكرم إلى أحد بساتين الفاكهة الوارفة هناك. سأل بعض المارة عن عائلة شو فقيل له أنها عائلة كبيرة يتوزع أفرادها في كل مكان من المدينة. وبينما هو يسلك الطريق بكرسيه الخاص بالمعاقين، بين أشجار الفاكهة المتنوعة، اقترب منه مجموعة من الأطفال يحملون سلالاً مليئة بالخوخ والنارنج، وقفوا أمامه يحدقون إليه بأعينهم العسلية الصغيرة. سألهم عن الطعام الذي يفضله أهل المدينة، فقال أكبرهم بدون تردد:

" شعرية لانتشو بلحم البقر "

ترك أكرم كرسيه ونهض واقفاً على قدم واحدة. وحين رآه الأولاد راحوا ينظرون إلى السماء الملبدة بالغيوم، فهتف أحدهم على نحو مفاجئ:

Telegram: @Arab_Books

" سوف يهطل المطر ! "

وصاح آخر بنفس الحماس الطفولي:

" لأن شانغ يانغ يقفز ! "

ثم هتفوا جميعهم، مقطبيّن، بصوت واحد:

" سوف يهطل المطر لأن شانغ يانغ يقفز

سوف يهطل المطر لأن شانغ يانغ يقفز ! "

أحس أكرم بروح شانغ يانغ تتلبس جسده وتشحذ فيه الرغبة بالقفز، فراح يقفز على قائمته الوحيدة، بينما الأولاد يهتفون حوله:

" سوف يهطل المطر لأن شانغ يانغ يقفز ! "

وهطل المطر.

التلويح

كان ينتظرها ظهر كل يوم على الضفة الأخرى من النهر، تحت شمس تموز اللاهبة.

تسيح سمرته ويلذع عينيه العرق الناضح من جبهته، بينما هو يظلل وجهه بكفٍّ أعياها التلويح دون جدوى. يلقي بنظرته الهائمة البعيدة نحو الجهة التي تبزغ منها، يفعل ذلك كبحار عتيد يمد بصره باتجاه اللا نهايات، عله يلمح يابسة أو صارية تذوب ثملة في قرص الشمس. وما أن يراها، تلك الفتاة التي لا يعلم لماذا عليها أن تطل من شرفتها الشناشيلية التي تشرف على النهر من الجهة المقابلة، في مثل هذا الوقت، حتى يبدأ بالتلويح. لكنها، كالعادة، لا ترد على تلويحه، إنما تبقى واجمة أمامه، تنظر إليه بعينين لا يبدو أنهما ترمشان، حتى تكهن في المرة قبل الأخيرة أنها عمياء.

لن يمضي المزيد من الوقت حتى تدخل الفتاة، ويبقى هو متسمّراً على الضفة. ينهكه الحر والشمس والعشق. ينزع عنه ثيابه وينزل إلى الماء، يعوم في النهر كما لو أنه يفعل ذلك للمرة الأولى، يعبر إلى الضفة الأخرى، يقف تحت شرفتها عارياً، ينادي عليها بصوت خافت، يسميها بكل الأسماء التي يحبها، أسماء النساء اللائي أحبهنَّ ولم يصغين إلى وشوشته، غزله، أحلامه، أشعاره، أغانيه.

Telegram: @Arab_Books

هو لا يعرف حتى اسمها، لم يسمع صوتها أبداً، لكنه، ومنذ أن رآها أول مرة، حتى أحس كما لو أن ثمة زاجل راح يخفق في صدره ويترك في قلبه رفيفاً يداعب أضلاعه بإحساس أخضر ويدغدغ مشاعره بريش الغرام الذي حاول مراراً تجاهله، لكنه لم يستطع. ولم يسبق له أن صدّق الأقاويل التي شاعت عنها، وعن كونها شبح ابنة مدير مصلحة التمور التي أغرقت نفسها في ليلة زفافها احتجاجاً على تزويجها رغماً عن ارادتها. أو هذا بالضبط ما حدث قبل ثمانين عاماً وما زالت النساء العجائز يروينه للصغار. وهي الحكاية التي طالما سمعها شهاب من جدته وتملكه الرعب منها حين سمعها أول مرة. ومنذ ذلك اليوم وشبح تلك المرأة لا يفارق شرفة ذلك البيت الشناشيلي القديم العائد إلى مدير مصلحة التمور في وقتها.

كما لم يكترث شهاب لسخرية الأهالي ولغطهم الدائر بشأنه، فبعضهم يقول إن شبح البيت الشناشيلي أجنّه. شبح ابنة مدير مصلحة التمور الذي يستدرج الرجال لإغوائهم بسحره والإيقاع بهم ومن ثم إغراقهم في النهر، إذ ما زال الحديث يجري عن غرق أكثر من عشرين رجلاً في المكان نفسه.

إلا أن كل هذه الأمور والحكايات المخيفة لم تقف حائلاً بين شهاب وبين محبوبته. فكان يخرج في عز الظهيرة إلى النهر، يقف هناك لأكثر من ساعة، قبل أن تطل هي بقامتها النحلية، ترتدي ثوباً مهلهلاً ذو بياض ناصع. عندئذ، يشعر هو كما لو أن هناك من يقرع طبلاً في صدره، فيرفع يده عالياً ويبدأ بالتلويح، يحاول أن يجذب انتباهها، ينادي عليها: يا زهرة، يا رفقة، يا جميلة! إلا أن شيئاً لا يبدر منها في تلك الأثناء، عدا أنها تدبر عائدة إلى مخدعها، فيرمي هو نفسه في النهر ويعوم في مياهه إلى الضفة الأخرى. ليبدأ هناك طقوسه اليومية المعتادة تحت شرفتها مثل مجنون.

لكنه، وما أن يحين الغروب حتى يعود إلى أدراجه، في خصّ كان قد ابتناه في بستان للنخيل، بين أجمات القصب ورائحة النعناع. يعود منهكاً، محنيّ الظهر،

Telegram: @Arab_Books

بوجه كالح غيّرت لونه أشعة الشمس الحارة، ويد متعبة متشنجة من كثرة التلويح، وقلب موجوع أرهقه الشوق. يأوي إلى فراشه، يتظاهر بالنوم، يتقلب طوال الليل، يتوسل بالنوم أن يأتيه وبالنعاس لعله يهبط على عينيه فيحلم بـ......

" ما اسمها يا ترى؟ " طالما كان يسأل نفسه: " جورية؟ جنّة؟ إقبال، بشرى، كريمة؟ "

لكن.. كالعادة.. لا جواب.

كان يسأل أيضاً عن السبب الذي يجعلها تتجاهله ولا ترد على تلويحه المستمر الذي تكاد النوارس تولد منه كما عبّر عن ذلك أحد الشعراء الإسبان الرومنطيقيين.

ولم يكن شهاب يطمح، في ذلك الحين على الأقل، بأكثر من تلويحة صغيرة ترسلها تلك الحبيبة من بعيد، عبر النهر، لترد بها على تلويحه الذي يتوزع، حسب الظروف والمواقف، إلى تلويح مسافر بالتوديع، أو تلويح مستقبل بالترحيب. تلويح حبيب لحبيبته من خلال النافذة في القطار، تلويح طفل لأمه من بين الغيوم في السماء، إلى آخر التلويحات التي يخيل له أنها صارت توجع الهواء على كثرتها. فقد كان تزداد يوماً بعد يوم ومن قبل طرف احد. طرف شهاب لا غيره. في حين ما زالت امرأة الشرفة: "لقاء، زهرة، منال، حنان.. ما اسمكِ يا امرأة؟" لا تحرك ساكناً. لا ترد.. لا ترد.

غير أن شهاب، وعلى الرغم من كل ذلك الجفاء لم ييأس من امكانية أن تلوّح له "نوال، جنان، هناء، قمر.. ما اسمها يا إلهي؟" في يوم من الأيام. وقد تحقق له ذلك أخيراً.

Telegram: @Arab_Books

ففي نهار يوم من نهارات صيف البصرة الطويل والمؤرق، خرج شهاب كعادته إلى النهر، في الوقت نفسه. وانتظر هناك ساعة حتى خرجت: "سهام، شمس، دلال، سلمى" راح ينظر نحوها بعينين دامعتين، وحاول قدر الإمكان أن لا يرمش، كأنه يريد بذلك أن يمتص وجومها المحير، الموجع. لم يلوّح لها بيده هذه المرة، إنما نزل إلى النهر. همس للماء أنه يحبها، وراح يعوم حتى وصل إلى المنتصف. توقف هناك. راح يحرك بقدميه ويديه بما يضمن له البقاء عائماً لأطول مدّة.

مرت ساعة وهو على هذا الحال، لا يظهر منه سوى رأسه الطافي فوق الماء مثل جاموس. أحس بالدوار، تشنجت قدمه اليمنى، غطس رأسه وعاد ليطفو مرة أخرى. لا زال يهمس للماء أنه يحبها. غطس مرة ثانية وعندما أخرج رأسه من تحت الماء أراد أن ينادي عليها: يا ليلى، يا حنان، يااا، إلا أن ثمة ما أثقل لسانه. غطس مرة ثالثة، ورابعة، وخامسة، وفي كل مرة تند منه شهقة لا يكاد يتمها حتى يغطس مجدداً.

أخرج يده وراح يلوحّ بها تاركاً نفسه للغرق. وبينما كان النهر يبتلعه، قبل الغطسة الأخيرة والمؤكدة، لمح من بعيد، من هناك، حيث اعتادت أن تطل فتاته من شرفتها الشناشيلية، يداً تلوّح.

كانت يداً بيضاء، صغيرة، مثل حمامة انتظرت احدهم أن يموت لتطير.

Telegram: @Arab_Books

المتسولة

حدث هذا في البصرة. عند تقاطع الطرق وسط المدينة. بعد الاحتلال البريطاني للمدينة بفترة قصيرة.

مجموعة من المتسولات اختلفن بشأن ملامة، المرأة الثلاثينية المنقبة التي تنافسهن في الاستجداء واستحصال العطايا من المارة والركاب. هل هي متسولة حقاً، أم أنها بائعة هوىٰ متخفية بمسوح الحشمة والتعفف؟

وبالتالي قررن مراقبتها عن قرب، والتجسس عليها، واقتفاء أثرها في كل مكان تتواجد فيه، والتحري بشأن المال الذي تحصّله ومصدره. وقد فعلن ذلك علىٰ مدىٰ اسبوع كامل، إلىٰ أن اجتمعن مرة ثانية وبدأ اللغط من جديد حول ملامة، ودار الحديث عنها لساعة، وعندما أوشكن علىٰ تبرئتها من تهمة الدعارة انبرت إحداهن وقالت إنها بائعة هوىٰ.

"رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود وهي تكشف صدرها للجنود البريطانيين"

قالت المتسولة ذلك، وادعت أن ملامة تفعل ذلك مقابل خمسة دولارات للنظرة الواحدة. وتستعمل من أجل إيصال غايتها تلك ورقة كرتون تحملها دائماً، توضح فيها للجنود عرضها الاغرائي.

Telegram: @Arab_Books

راقت الفكرة للمتسولات. فرحن في اليوم التالي يقدمن عروضهن للجنود البريطانيين، في تقاطع الطرق، بواسطة أوراق كُتب عليها:

" هل تود أن ترىٰ؟

ادفع لأجل ذلك

النظرة الواحدة خمسة دولارات

واللمسة عشرة دولارات "

انقضت عدة أيام ولم تجنِ مجموعة المتسولات دولاراً واحداً. في حين كانت ملامة تحصل علىٰ المزيد من العملة الصعبة، وتعود إلىٰ خصّها مليئة بالسعادة وأكياس الفاكهة والطعام. الأمر الذي أدىٰ إلىٰ استعار الغيض في نفوس المتسولات اللائي أحسسن بالبساط وهو يُسحب من تحتهن.
" هؤلاء الانجليز بخلاء! " قالت إحداهنَّ.

" تلك المرأة " قالت الأخرىٰ:

" تعرف جيداً من أين تؤكل الكتف "

" نعم " قالت الثالثة بامتعاض:

" وإلا لما استحوذت علىٰ اهتمام هؤلاء الجنود الشقر والسود! "

" ماذا سنفعل؟ " قالت متسولة:

" انها تسرق أرزاقنا، هل سنموت من الجوع؟ "

"لا أحد يموت من الجوع" قالت أخرى بصوت غاضب سرعان من انتهى إلى التهدئة:

" سنجد حلاً "

في اليوم التالي دُعيت ملامة من قبل المتسولات ليتباحثن معها بهذا الصدد. وطلبن منها مغادرة المكان إلى مكان آخر تجد فيه رزقها، فتقاطعات الطرق في المدينة كثيرة. إلا أن ملامة رفضت ذلك قائلة بأن ذلك صحيح، وأن تقاطعات الطرق في المدينة كثيرة، لكنها لا تعتقد أن أحدها على الأقل تملكه مجموعة من المتسولات الحاسدات. ثم وضحت لهن بأنها كانت في هذا المكان حتى قبل أن يفكرن بامتهان التسول، ولأجل هذا لن تغادره أبداً.

حينئذ، ازداد غيض المتسولات والتمع الشر في أعينهن، وصارت ملامة لا تشك في أنهن سيكدن لها في القريب العاجل. وقد تحقق ذلك بعد فترة قصيرة عندما وشت مجموعة المتسولات بملامة إلى أحد رجال الميليشيات الدينية المسلحة في المدينة. ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى شرع بعض المسلحين الموشحين بالسواد بمراقبتها. وما هي إلا أيام حتى اختفت المرأة ولم يعد يراها أحد. افتقدها سوّاق الشاحنات وجنود الدوريات البريطانية. في حين لم تهتم الشرطة بقضيتها وأُعلن عن أنها مفقودة. وكادت تُنسى أخيراً قبل أن يعثر عليها أحد عمال البلدية. وكما هي عادة القتلة في هذه المدينة، كانت جثتها ملقاة على مقربة من مكب للنفايات أمام دائرة الطب العدلي.

وجدوها هناك بين الأزبال، نصف عارية، وكان صدرها مشوهاً، أو بالأحرى لم يكن هناك ثديان، إنما آثار عملية جراحية على ما يبدو. وكانت تقبض في يدها على ورقة الكرتون نفسها، مكتوب فيها بلغة انكليزية ركيكة:

" ساعدوني لطفاً.. أنا مصابة بسرطان الثدي! "

Telegram: @Arab_Books

المغازلة

يجهل عصام فن المغازلة. لا يعرف كيف يستميل حنان، جميلة الحي، لتُعجب به. جرّب كثيراً، لكنه، وفي كل مرة يحاول ذلك يفشل ويشعر بالخيبة. ينطوي على نفسه في عزلة كئيبة، ويبدو مغموماً طوال الوقت، ونحيلاً يردد بيت شعر للمتنبي يخاطب فيه معشوقته قائلاً:

" كفى بجسمي نحولاً إنني رجل

لولا مخاطبتي إياك لم ترني "

إلا أن المرأة لا تكاد تعبأ به. وفي كل مرة تظهر ممانعتها على نحو تبدو كما لو أنها مهرة جموح لا يرضيها كلام الشعراء المنمق وغزلياتهم التي يتغنون فيها بجمالها.

حتى الرسائل الغرامية التي واظب عصام على كتابتها بين الحين والآخر، وكان يعطرها ويزخرفها ويبث لها فيها لواعجه وهمومه وغرامه قبل أن يقوم بإرسالها بيد أحد الأولاد الصغار مقابل قطعة من الشوكولا، حتى هذه الرسائل التي دائماً ما يثقلها بشكواه ويذيلها بأجمل ما تجود به قريحته من شعر ونثر لم تكترث لها حنان أو يرف لها جفن. الأمر الذي طالما أرّقه، وكاد يجعل منه مجنوناً سائراً على

Telegram: @Arab_Books

خطى الشعراء التائهين في الصحارى والوديان. أولئك الذي يوشكون على الموت وأسماء معشوقاتهم الجافيات تغرغر في أفواههم من الحب.

ولم يترك عصام شيئاً إلا وفعله. ولم يدع مكاناً يظن أنه سيبلغ فيه غايته إلا وسعى إليه، حتى مخادع السحرة ومكائد الشعوذة وتكايا الروحانيين قام بزيارتها. إلا أن كل ذلك كان من دون جدوى. فقد كان، بينما هو على هذا الحال، أشبه بالغريق المتعلق بقشة.

في نهاية المطاف، وفي محاولة أخيرة لاستمالتها، قرر عصام الاستعانة بشبّان الحي ممن جربوا حظوظهم مع حنان قبله، وهاموا فيها حباً، وطاردوها في الأزقة والأسواق، وصلبوا قاماتهم تحت لهيب الشمس أمام نافذتها ليل نهار، واقتبسوا في رسائلهم لها أعذب الأشعار، وبكوا على بابها وتوسلوها كما يتوسل أحدهم رغيف خبز يسد به جوعه. وكانوا قد استنزفوا كل مشاعرهم وبذلوا كل ما في وسعهم من أجل كلمة واحدة تنطق بها وتكون بمثابة البرد الذي يُطفئُ ما استعر في ذواتهم من نار العشق.

وكان عصام، قبل ذلك، يسمع بحنان فقط ولم يرها إلا في وقت متأخر. كان يستهجن مشاعر أولئك الشبان التي وصلت إلى حد التذلل والهيام. وكان يظن أن هذه المرأة التي شُغِفوا بها ساحرة. وإلا فإن بذل المشاعر على هذا النحو المفرط لن يكون في النهاية سوى نوع من الإسفاف العاطفي، إذ طالما تيقّن أن الحب قد ولّى زمنه منذ قرون، ولم يبقَ منه سوى رغوة تطفح ثم تذوب سريعاً.

لكنه ما أن رأى حنان حتى أحس كما لو أن نيزكاً شق رأسه ووصل إلى قلبه وبُعثر في شرايينه واختلط بدمه، ليجعل منه عاشقاً مغرماً لا يقل في قوة انجذابه لها عن أقرانه، في حال أنه لم يتفوق عليهم بذلك.

Telegram: @Arab_Books

وجدهم مجتمعين عند رأس الزقاق، يعلكون ويدخنون السجائر. فسألهم واحداً تلو الآخر عما إذا كان هناك ما يمكن أن ينصحوه به ويكون بمثابة الطريق السالك إلى قلب حنان. وبينما هو منهمك بذلك تذكر نظرية أن الحب أعمى. فردد العبارة نفسها في نفسه ثم قال:

" وإن ذلك لحق! "

وإلا ما الذي جعله يظن أن شباناً كهؤلاء من المفترض أنهم غرماءه سيساعدونه في مسعاه. وربما لهذا الس لم يعطه أحداً منهم جواباً يمكن من خلاله أن يكسب ود تلك المرأة المبهمة، الغامضة.

كانوا يصوِّتون بأفواههم فحسب.

الأرجح أنهم كانوا يغردون.

عندئذ، فهم عصام أنهم بذلك، أرادوا إيصال الطريقة المناسبة لاستمالة حنان. وهي الطريقة الكلاسيكية الدارجة، التي عادة ما يستخدمها الشبّان للفت انتباه فتاة أو امرأة تعجبهم. وهي أن يقف المرء في مكان ما يمكن أن تمر به الفتاة التي يُراد الإيقاع بها. في الشارع أو عند ركن المدرسة أو في بداية الزقاق أو حتى في السوق. وبمجرد أن تمر من أمامه حتى يبدأ التغريد.

بعضهم يصوتون أو يصفّرون كما الريح. والبعض الآخر يطلقون حمحمة أو يبسبسون كما لو أنهم يجذبون بذلك قطة وليس امرأة. وقد يُعتبر ذلك تحرشاً يستوجب العقاب إذا ما شكت امرأة أو فتاة أحدهم يطلق في إثرها مثل تلك الأصوات بقصد لفت الانتباه، ونادراً ما يتلقى المرء إزاء ذلك إهانة أو شتيمة أو حتى ضربة من حذاء إحداهن. إلا أن بعض هذه المحاولات دائماً ما تنتهي

Telegram: @Arab_Books

بالنجاح، وتكون سبباً لتكوين علاقات حب تصدف أحياناً أن تكون حقيقية وصادقة كما يأمل عصام بذلك.

قضىٰ عصام أغلب ليله بانتظار صباح اليوم التالي. كان يمرّن نفسه علىٰ التغريد. وقد فعل ذلك آلاف المرات. كان يقف أمام المرآة ويغرد مثل بلبل حزين تارة وفرحاً تارة أخرىٰ، حتىٰ كلّ لسانه وأحس بالتعب والإرهاق.

وعلىٰ الرغم من أنه قاوم نعاسه بإصرار، لكنه غفا في نهاية الأمر، ورأىٰ نفسه في الحلم وقد تحول إلىٰ بلبل مبلل يقف علىٰ أحد أسلاك أعمدة الكهرباء. وكان قد حط هناك بعد تجواله تحت سماء ماطرة. كان ينفش ريشه وينفض عن نفسه قطرات المطر. ينتظر أن تمر حنان من تحته ليلحق بها. وعندما ظهرت أخيراً طار إليها وبدأ يغرد وراءها علىٰ طول الطريق من دون أن تعيره هي اهتمامها. لكنها ما أن التفتت إليه حتىٰ اكتشف مذعوراً أنها ليست هي. شعر بالجزع، وراح يبحث عنها بين النساء المتلفعات بالعباءات، واللائي ملأن شوارع المدينة.

هنا تحديداً، استيقظ عصام من حلمه فزعاً. كانت الشمس قد أشرقت وأرسلت أشعتها عبر النافذة. فترك فراشه علىٰ الفور. غسل وجهه، بدّل ثيابه، وخرج من البيت مسرعاً. وقف في مكان يتيح له رؤية حنان التي خرجت من البيت في تلك الأثناء، فراح يمشي في إثرها، وقد أرسل إليها أول تغريدة أحس كأنها خرجت من قلبه وليس من فمه. ثم تبعها بالثانية التي كانت محملة بدفق عاطفي جارف، وفي التغريدة الثالثة التفتت حنان وابتسمت له، فازداد خفقان قلبه، وتصاعد تغريده علىٰ نحو يبدو أنه حقق ما يصبو إليه، فقد كانت المرأة تلتفت إليه بين تغريدة وأخرىٰ وتبتسم.

كاد عصام يطير، أو هذا ما شعر به في ذلك الحين. كان قلبه يخفق بسرعة خال معها أنه سيتوقف. لكنه تمالك أحاسيسه في وقتها، وتابع طريقه في إثر حنان

Telegram: @Arab_Books

التي، وعلى ما يبدو، أنها كانت مستمتعة بتغريده الذي استمر طوال اليوم. فقد كانت تقوده من زقاق إلى زقاق، ومن سوق إلى آخر. في حين كان هو منقاداً إليها في مشيه ويغرّد.. يغرد، من دون أية شكاية أو ملل أو تعب قد يصيبه في الحالات الطبيعية. حتى إذا وصلت المرأة إلى بيتها مع الغروب، ودعته بابتسامة وقُبلة في الهواء.

وكما لو أنه تلقى تلك القبلة حقاً، تورّد وجهه وبعثت تلك الحركة فيه طاقة هائلة. حتى أنه كان على استعداد تام لأن يمشي وراءها إلى نهاية العالم ويغرد، إذا ما رغبت هي بذلك. لكنها لم تخرج من البيت مجدداً منذ أن أغلقت الباب. كما لم يلمح أثرها أو خيالها من وراء ستارة النافذة المطلة على الشارع.

حينذاك، لم يعد أمامه سوى الانصراف. على أمل العودة غداً، وبعد غد، وما يليه من الأيام إلى أن يفوز بقلبها.

في طريق عودته إلى البيت، عندما أراد أن يشتري علبة سجائر، لم يفهم صاحب الدكان ما قاله، فاضطره ذلك إلى أن يكرر طلبه أكثر من مرة، وأيضاً لم يفهم الرجل شيئاً.

" ماذا؟ " قال صاحب الدكان وقد أعطاه أذنه ليسمعه جيداً:

" ماذا تريد؟ "

واستمر الحال على ما هو عليه عدة دقائق، لجأ بعدها عصام إلى استعمال لغة الصم والبكم، ظاناً أن صاحب الدكان إما معتوه أو أطرش.

عندئذ قال الرجل:

" ولماذا لا تقول أريد سجائر؟ "

Telegram: @Arab_Books

استغرب عصام أن الرجل لا يفهم كلامه حقاً. وازدادت حيرته حين سمعه يقول عندما هم بالمغادرة:

" لماذا لا تتكلم مثل الناس؟ لماذا تغرد يا رجل؟!؟

" أغرّد؟ " قال عصام وأطلق شتيمة لم يفهمها الرجل أيضاً، فقد وصلت إلى أذنيه على شكل تغريدة غاضبة.

غادر بعدها الدكان. وفي البيت، اكتشف أنه لم يعد بمقدوره إلقاء التحية، ولا تسمية الأشياء بمسمياتها. لقد نسي الكلام، ولم يعد بوسعه، إذا ما أراد التحدث مع أحد، سوى التغريد مثل بلبل.

في اليوم التالي، جرب أن يلقي تحية الصباح على أمه، لكنه فوجئ مجدداً أنه يغرد. ذُهلت الأم من ذلك ولم تصدق ما سمعته. وضعت يداً على قلبها والأخرى على فمها الذي فغرته بشكل يظن المرء معه أنها صُعقت. تناول عصام إفطاره صامتاً، وخرج من البيت، وقد عزم على استعادة قدرته على الكلام. راح يبحث عن الشبان الذين استعان بهم، فعلموه فن التغريد. لكنه لم يجدهم في مكانهم المعتاد عند رأس الزقاق. فتش عنهم في كل مكان من الحي، حتى عثر عليهم فوق شجرة سدر على مقربة من النهر.

كانوا أشبه بجوقة من البلابل حطت هناك لتتشمس. كلمهم بشكل طبيعي وردوا عليه بكلام مفهوم. ظن أنه تخلص من عقدة لسانه واستعاد قدرته على الكلام. شعر بالارتياح، من دون أن يلبي دعوة أولئك الشبان الذين كانوا يتهامسون بشأنه، بالصعود إلى الشجرة. وكان على وشك المغادرة عندما تناهى الصوت من الأعلى إلى أذنيه: "لا تفرح كثيراً يا صديقي" كان هذا صوت أحدهم قائلاً: "الطيور تفهم بعضها!".

بيضة الديك

عندما سأل بلال ذو الأعوام الخمسة أمه، ذلك السؤال السيابي اليائس:

" متى يعود أبي؟ "

أجابته، بينما هي تخيط ثوباً أسود لترتديه، حداداً على زوجها الذي قُتل في الحرب قبل أيام:

" عندما يبيض الديك! "

كان من الممكن وبسهولة، بالنسبة لطفل بهذا العمر، أن يصدّق ما قالته الأم المنكوبة لتدفع عنها لوعة الإجابة فيما لو قالت له الحقيقة، فيمضي وقته بانتظار بيضة الديك التي ستعيد له والده.

لكن أي ديك؟ فهو لا يملك ديكاً، ولم يسبق للعائلة أن ربّت واحداً من قبل. وعلى الرغم من ذلك لا يبدو الطفل مقتنعاً بجواب الأم التي لم تجف دموعها طوال الأيام الماضية، إذ سأل بلال جده لأبيه في اليوم التالي، عما إذا كانت الديكة تبيض حقاً، فأجابه هذا، بنبرة إشفاق، وقد مسح بيده على رأسه قائلاً:

" ربما يبيض الديك في السنة بيضة واحدة "

Telegram: @Arab_Books

اغتبط بلال وطلب من جده أن يشتري له ديكاً، فلبى الجد رغبته، وراح يراقب حفيده بينما هو يعتني بذلك الديك ويُطعمه الديدان ويبتني له قناً صغيراً ويحرسه من الهررة المفترسة وينتظر متلهفاً أن يضع البيضة التي ستكون بمثابة الفأل الحسن والعلامة المُبشرة بعودة والده.

وفي أحد أيام أيلول، بعد مضي عام على اندلاع الحرب ومقتل رب الأسرة، وبينما هو يتفقد القن ويكشط الذروق عن أرضيته فوجئ بلال بوجود بيضة هناك. لم يصدق عينيه. حمل البيضة برفق كما لو أنها جوهرة ثمينة. راح يتفحصها ليتأكد إن كانت بيضة حقاً. قرّبها من أذنه ورجّها قليلاً:

" لا بد أن فيها صوصاً "

قال مبتهجاً وركض إلى أمه وهو يقفز ويهتف من الفرح:

" باض الديك! باض الديك! "

كانت الأم تصلح ثوبها الأسود الذي ارتدته حداداً على زوجها القتيل منذ عام عندما سمعت ابنها ينادي عليها مردداً تلك الكلمات المحتفية. فتجمعت الدموع في عينيها وسكبتها دفعة واحدة، وانسابت على خديها، لكنها لم تجهش. وقد لاحظ بلال آثار الحزن بادية على وجهها وملامحها وتعابيرها الباكية عندما كانت تمسح تلك الدموع بطرف شالها. الأمر الذي كبح فرحته ببيضة الديك، وقد بدا ذلك ظاهراً في صوته، حينما بسط يده المرتجفة ليريها البيضة قائلا بنبرة لا تخلو من الحزن:

"ها قد باض الديك يا أمي فمتى يعود أبي؟"

"عندما تفقس البيضة" قالت الأم بنبرة لا تقل حزناً عن ذلك الذي أثخن صوت الابن منذ قليل. كانت على وشك أن تحتضنه، لكنها رمقته بتلك النظرة البائسة،

Telegram: @Arab_Books

وبدت كما لو أنها تريد أن تكشف سراً أو تفصح عن شيء ما، كأن تصفعه وتقول له إن أباك لن يعود أبداً، ثم تطرده ناصحة إياه بأن لا يعود إلى مثل هذه الألاعيب الصبيانية. إلا أنها، وبدلاً من أن تفعل ذلك، مسحت دموعها وأشاحت بوجهها جانباً، قبل أن تعود لإصلاح ثوبها.

إلا أن بلال لم ييأس ولم يكف عن محاولاته، فقد وضع البيضة تحت إحدى الدجاجات التي جلبها جدّه مؤخراً وأسكنها مع الديك في القن، وقد ميزها بعلامة لكي لا تضيع بين بقية البيض، وراح ينتظرها حتى تفقس. كان يراقبها كل يوم ويدس يده تحت الدجاجة لكي يتأكد من أنها تحظى بما تحتاجه من حرارة، قبل أن يحذره الجد من إمكانية فسادها بسبب اللمس المتواصل. فكف عن ذلك أخيراً، ولم يبذل جهداً إضافياً سوى الانتظار الذي أثمر في النهاية، فقد فقست البيضة في صباح أحد تلك الأيام، واستيقظ بلال على صوت الصوص، فأسرع إلى القن ووجده هناك. حمله إلى أمه مجدداً وهو يصيح فرحاً:

" فقست البيضة.. فقست البيضة! "

فسمعته الأم ولم تستطع أن تحبس دموعها هذه المرة أيضاً وهي تراه يمد يده التي تحمل الصوص إليها ويردد:

" ها قد فقست البيضة يا أمي وخرج الصوص فمتى يعود أبي؟ "

حينها، رمقته أمه بالنظرة الساهمة نفسها، غير أنها كانت أكثر شزراً وحدّة وأقل حزناً. كادت تصرخ في وجهه قائلة أن أباه لن يعود حتى لو فقس بيض الديكة والنعامات والديناصورات جميعاً. لكنها تمالكت نفسها وتأوهت كثيراً ثم قالت بصوت كسير وهي تقلب ثوبها الأسود نفسه، مستبدلة ظاهره بباطنه، وتعيد خياطته، بعد أن تغير لونه ومال إلى الرمادي من كثرة الاستعمال:

Telegram: @Arab_Books

" عندما يكبر الصوص ويصير ديكاً! "

مرت الأيام ثقيلة ومملة، وبلال ما زال لا يحول نظره عن الصوص. كان يتفقده كما لو كان هو الذي رقد فوقه حتى فقست قشرته، يفعل ذلك ليل نهار، يوفر له الماء والطعام، ويحفظه بعيداً عن متناول مخالب الجرذان وقطط المطابخ الجشعة. وبالتالي، فإن من حسن الحظ أن الصوص أصبح ديكاً فيما بعد.

عندئذ، قالت الأم حين حمل بلال إليها الديك البالغ، وقد سألها متى يعود والده:

" عندما يبيض الديك! "

وهكذا، مرت خمسة أعوام.

وفي كل مرة يبيض الديك وتفقس بيضته، ويكبر الصوص ويصبح ديكاً، يتكرر نفسه السيناريو. إلى أن جاء اليوم الذي مات فيه الجد، فكفّ الديك عن وضع البيض. وبدأ بلال يشعر بالملل ويتساءل بحيرة عما أصاب ديكه وجعله لا يبيض. سمعته أمه يوماً يتوسل به قائلاً:

" أرجوك أيها الديك.. بيضة.. بيضة واحدة لا أكثر! "

لكنها لم تتفوه أبداً. كانت تبكي بصمت. تبكي فقط.

" ربما أصبح عجوزاً هذا الديك؟ "

قال مرة لنفسه، وخطرت له فكرة هي أن يجلب ديكاً جديداً يكون بإمكانه وضع البيض بدلاً من هذا الديك العاجز. ولم تكن الأم لتصمد أمام إلحاح وتوسل ابنها، فلبّت طلبه واشترت له ديكاً جديداً.

Telegram: @Arab_Books

إلا أن هذا الديك الجديد لم يكن يفعل شيئاً سوى الأكل والشرب وركوب دجاجاته وملأ أرضية القن بذروقه والوقوف على هوائي التلفاز والصياح فجراً. ولم يكن هذا ما يريده بلال، إنما كان يريد منه أن يبيض. لكنه بالمقابل لم يضع ولا حتى بيضة واحدة صغيرة.

عندئذ، عاد بلال إلى سؤاله الأول. لجأ إلى أمه كالعادة، وكانت ترتق ثوب الحداد الأسود نفسه، وقد صار أسمالاً.

سألها بصوت واهن:

" متى يبيض الديك يا أمي؟ "

" عندما يعود جدك؟ " ردت الأم.

" ومتى يعود جدي يا أمي؟ " سألها.

" عندما يبيض الديك "

ردت الأم، وشقت ثوبها.

الوقوف

كان عماد في طريقه إلى العمل، عندما توقف في منتصف الشارع، ليلقي نظرة على ساعته، واكتشف أنه لم يعد قادراً على الحركة.

حاول أن يتقدم خطوة إلى الأمام، أن يلتفت أو يرفع رأسه إلى الأعلى، أو يحرك أصابع يديه، لكن من دون جدوى. ترى ما الذي حدث وجعله يتجمد في مكانه هكذا؟ تساءل وحاول أن ينطق بذلك، لكن يبدو أنه فقد قدرته على النطق أيضاً. تملكته الرغبة بالصراخ، بالاستنجاد. لكن، لا فائدة من كل ذلك.

كان المارة يمرون من أمامه، إلا أن الغريب في الأمر أن أحداً منهم لم يلفت انتباهه وقوفه في منتصف الشارع، تلك الوقفة التي لا بد أن تكون مدعاة للتساؤل والفضول الذي يأمل أن يدفع أحدهم للتحقق بشأنه. كما لو أنه غير موجود، غير مرئي، أو خارج الزمان والمكان الذي يتحرك فيه أولئك الناس، وكأن حدث وقوفه المفاجئ لا ينتمي إلى الحاضر الذي يضج من حوله، حيث الحركة الدائمة، الأصوات، ووقع أقدام الحياة الذي يُسمع من بعيد وعن قرب، وفي كل مكان. وعلى الرغم من ذلك لا يبدو أن أحداً يراه، بينما هو يرى ويسمع ويحس. إذن هو حي، أو هذا ما راح يردده في نفسه: " أنا حي! هل تسمعوني؟ أنا حي! "

وفي محاولة للتهدئة وتهوين الأمر عليه، بدأ عماد يلقّن نفسه فرضية أن هذه الحالة مؤقتة، وأنها سرعان ما ستنتهي مثل أي كابوس أو وهم. أو ربما هي كذلك، مجرد

Telegram: @Arab_Books

كابوس أو وهم من تلك التي عادة ما تزوره في منامه أو تحضره في يقظته. إذ طالما رأى نفسه، في الأوقات التي يجلد نفسه أو ينتابه فيها اليأس، ممسوخاً إلى تمثال أو حيوان أو شيطان.أقنع نفسه بذلك، وراح يستمتع بانتظاره حتى يحين الوقت الذي يستيقظ فيه من ذلك الكابوس أو الوهم.

انتصف النهار ولم يستيقظ أو يوقظه أحد، وما زال وقوفه الغريب لا يلفت الانتباه، وقد عاد إلى محاولاته السابقة من أجل تحريك أطرافه ورأسه، لكنه لم يتزحزح من مكانه شبراً، لم يرمش أو تتحرك منه عضلة أو حتى أنملة صغيرة من أنامل أصابعه المتجمدة. كان نابتاً هناك، مثل تمثال سيئ النحت، وقد استحالت بشرته إلى اللون البرونزي الكالح، وكان ما يزال ينظر ببلاهة إلى ساعته اليدوية، التي توقف فيها الزمن عند الثامنة صباحاً.

" هل أنا ميت؟ "

تساءل مجدداً، وخال في تلك الأثناء أن صوته خرج من حلقه أخيراً، قبل أن تحبطه لا مبالاة الناس الذين كان يسمع خطواتهم على الاسفلت، وحديثهم كلما مروا على مقربة مه من دون أن يخطر في بال أحدهم الاستفسار منه قائلاً: ما وقوفك الغريب هنا يا سيدي؟ أو: هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟ أو: هل تريدنا أن نخبر أسرتك شيئاً؟ أو: هل نبلغ الشرطة؟ أو: هل نستدعي سيارة اسعاف؟

"ليكن.. أنا ميت.

لكن لماذا أنا واقف هنا؟ "

قال في نفسه ثم أكمل العبارة وكانت مذيلة بحيرة ونبرة حزينة غير مسموعة، وقد أوشك على البكاء:

" هل أنا نخلة يا إلهي؟! "

أراد أن يرفع نفسه إلى السماء عندما قال " يا إلهي " لكنه لم يستطع.

لقد رأى من قبل، في أثناء الحروب، آلاف النخيل الميت، وكان يسأل على الدوام: لماذا يبقى واقفاً رغم موته؟ وفي كل مرة يجد من يرد على تساؤله عازياً السبب في موت النخيل وهو واقف إلى قوة تشبث جذوره في الأرض.

" لكني لستُ نخلة.. أنا إنسان، ألا تروني أيها الناس؟ "

قال ولم يخرج صوته أيضاً، كان يدور في حلقه مثل فراشة تائهة، محترقة، ويستقر على لسانه، يلذعه بمرارة بينما هو يردد:

" أنا عماد.. اسمي عماد، وأنا بشر مثلكم.. أيعقل أنكم لا تروني؟! "

ظن أنه صار يجهش بالبكاء. لكنه لم يكن يبكي.

الأحرى أنه كان يضحك. يطلق تلك الضحكة الهيستيرية اليائسة التي لا أحد يسمعها غيره. كان يضحك، لكنه لا يضحك في الوقت نفسه. وعندما صار يبكي، لا يبدو أن يبكي، إذ ليس هناك ما يشي بذلك. لقد توقفت تلك الغدد الظاهرية عن افراز السائل الملحي المثير للشفقة مؤخراً. لذا، لا أحد سيراه وهو يبكي.

عندما حل الليل، انتهز بعض اللصوص الفرصة، واستولوا على مدخراته، نقوده، محفظته، وساعة اليد. ورغم أنه فقد ممتلكاته تلك، إلا أن عماد أحسّ بشحنة، وإن تكن طفيفة، من الطمأنينة.

أخيراً رأوه، لاحظوا وقوفه، حتى وإن كان أولئك من لصوص الليل. ومع أنه لم يشعر بذلك، كأي جماد آخر، لكنهم لمسوه. ها هو الآن يبدو مرئياً، حتى وإن كان ما حدث في أثناء عملية سطو، ذلك لا يهم، ما دام أن هناك من صار يلاحظ

Telegram: @Arab_Books

وجوده. وإذا كانوا في هذه الليلة مجموعة من اللصوص، لا بد أن يأتي غداً فاعل خير ويزيح هذا الكابوس ويلقي بثقله بعيداً عنه. لا بد أن يكترث أحدهم لأمره. لا يُعقل أن تخلو الحياة من أناس يساعدونه على انتشال نفسه مما وجدها عليه في أحد الأيام.

لكنه، وعلى امتداد ساعات نهار اليوم التالي، لم يجدهم أولئك الذي يمتلكون القدرة على المساعدة، على تحرير الناس وتحريك الأشياء وإسعاد النفوس. أو ربما هم من لم يعثروا عليه، رغم أنه ما زال منتصباً هناك، لكنهم لم يروه، لم يلاحظوا وقوفه، ولم يسأله أحدهم:

" ما لوقوفك في هذا المكان عزيزي؟ هل أنت مريض؟ "

عندما حل ظلام الليلة التالية، زاره لصوص الليلة الماضية. فحاول إيصال صوته لهم. قال في نفسه: أن جانباً مضيئاً وإيجابياً لا بد من توفره في نفوس هؤلاء السُرّاق. لكن أحداً منهم لم يكن يهتم بشيء سوى السرقة. فجرّدوه من ثيابه هذه المرة. ومع شروق الشمس كان ثمة تمثال عارٍ يتوسط الشارع بشكل معيب. غير أنّ شيئاً لم يتغير حتى تلك اللحظة.

إذ لا يبدو أن أحداً يعبأ به. لا أحد يراه أو حتى يشعر بوجوده. لا أحد يقترب منه ويصفعه ويشتمه قائلاً:

" ما لوقوفك المعيب هنا عزيزي؟ ألا تخجل من نفسك؟ "

مرّ أسبوع على تجمده ووقوفه ولم يتفقده أحد، أو يسأل عنه أو يتحرى بشأن مصيره، وما إذا كان حياً أو ميتاً. حتى عائلته، زوجته، أخوته وأصدقائه، زملاؤه في العمل. هل يعقل أن أحداً لم يلاحظ غيابه؟ سوف لن يستغرب الأمر في حال لم يكن في الوجود أصلاً. لكنه موجود، حتى وهو عبارة عن كتلة من الجماد في

وسط الشارع فإنه يشعر بأنه موجود. فكيف حدث أن احداً من كل أولئك الذين يعرفهم وتربطه معهم علاقة لم يدر في خلده أن يسأل عنه؟

في أحد الأيام، بعد مرور عام كامل على وقوفه المخزي في منتصف الشارع، لم يعد عماد يشعر بشيء، حتى ملمس الفُرش وهي تدهن جسده بمادة سائلة.

كان أولئك بعض اليساريين، قاموا بطلائه باللون الأحمر في عيد العمال.

في العام الثاني طُلي من قبل اليمينيين بالسواد.

وفي العام الثالث عمد العسكرتاريون إلى تغيير لونه إلى الزيتوني.

في نهاية المطاف، وتحديداً في التاسع من نيسان ٢٠٠٣، اقتُلع رأس عماد بصاروخ دبابة ابرامز أمريكية.

تناهب السُرّاق جسده وأطرافه، وبيعت في سوق الخردة. لم يبق منه سوى قدميه اللتين أصبحتا الحجر الذي راح يتعثر به المارة. مما استدعى عمال البلدية إلى التدخل، فقاموا باقتلاعه هو الآخر، بداعي إزاحة الأذى عن الطريق.

Telegram: @Arab_Books

تهنئة من رئيس الوزراء

اشترى حنون هاتفاً نقالاً للمرة الأولى في حياته. وكانت ليلة مميزة، ليلة العيد، حين وصلته أول رسالة، اضطر إلى الاستعانة بجاره، كي يقرأها له، إذ إنه لا يعرف القراءة والكتابة:

" ليست ذات أهمية " قال الجار، وبدا كما لو أنه قرأ عبارة مألوفة:

" تهنئة من رئيس الوزراء بمناسبة العيد "

لم يصدق حنّون ما قاله الجار فصاح متعجباً فاغراً فمه بذهول:

" رئيس الوزراء؟ بلحمه ودمه يهنئ عاملاً معدماً في البلدية، تضمخ رائحة البلاليع ثيابه كل الوقت؟ "

" وما الغريب في ذلك؟ " قال الجار هازئاً بمرح:

" وصلتني الرسالة نفسها "

" حقاً؟ " صاح حنون والشك يملأ عينيه اللتين ضيّقهما وراح ينظر بهما إلى جاره بريبة. ثم وبحركة مفاجئة، اختطف الهاتف من يده قائلاً باستعلاء مصطنع وبدا كما لو أنه ينظر من علوّ:

" اعطني هاتفي أيها الجار الحقود، لا بد أنك تحسدني! "

Telegram: @Arab_Books

وغادر حانقاً.

بعد أيام، وبينما هو يساوم البائع في البقالة على سعر نصف كيلو فاصولياء للغداء، تذكر بطاقة التهنئة الرئاسية، فأخرج هاتفه النقال وأطلع البائع على محتواها:

" هل ترى؟ إنها من رئيس الوزراء. أنا وهو كنا مثل قدمين في جورب واحد. لذا، عليك أن تخصم من سعر نصف كيلو الفاصولياء، وإلا شكوتك له، أيها البقال الجشع! "

هزّ البقال يده هازئاً، عازياً السبب في تردي عقل الرجل إلى الخرف. قال له بعدها أن الجميع تصلهم مثل هذه البرقيات التافهة.

ثم طرده.

جرب حنّون ذلك في مديرية الجنسية العامة، من أجل استصدار بطاقة أحوال شخصية جديدة بسرعة، بدلاً من وقوفه الممل في الطابور. وأثناء محاولته الحصول على بطاقة دخول إلى الملعب بالمجان، لمشاهدة مباراة لنادي الميناء الكروي. وكذلك عندما أراد الظفر بوجبة عشاء في حفل زفاف لم يُدع إليه.

في أحد تلك الأيام، حينما كان حنّون في طريق عودته إلى البيت من العمل، أحس أن هناك من يتعقبه.

" هكذا هم أصدقاء رئيس الوزراء " ردد مع نفسه:

" معرضون دائماً للخطر! "

وما زال يخرج من زقاق ويدخل في غيره، ويعبر جسراً تلو آخر، وكل ظنه أنه تخلص من مطارده، حتى فاجأه شخص ملثم خرج أمامه من أحد الأفرع شبه المهجورة، قائلاً له بينما هو يشهر سكيناً:

Telegram: @Arab_Books

" اعطني هاتفك النقال وإلا طعنتك! "

مذعوراً، أخرج حنّون هاتفه، لا لكي يعطيه للسارق، إنما ليريه برقية رئيس الوزراء:

" انظر أيها الحرامي التعيس بفم من وقعت. أنت بتهجمك عليّ ومحاولة سلبي إنما تعرض نفسك لعواقب وخيمة! "

ما أن قرأ السارق محتوى الرسالة، حتى أحس أنه سينفجر من الضحك.

قال وملء فمه تهكماً:

" أيها العجوز. يا مخ الغباء أنت. تضحك على من يا خرقة المسح؟ لديّ الكثير من هذه الترهات. حتى عندما فاز المنتخب الوطني بكأس آسيا، وصلتني تهنئة من رئيس وزرائك الفاشل هذا، مع أني لا أحب كرة القدم. لو أنها رسالة ورقية، لقلت لك أنقعها واشرب ماءها يا مستودع البلاهة! "

" صه! " امتلك حنّون من الشجاعة قدراً أهّله لأن ينهر السارق:

" هزُلت وحق السماء! حتى أنت أيها الحرامي الحقير تحسدني؟! "

فجأة. باغت السارق حنون بضربة على رأسه بأخمص سكينه، وأفقده وعيه. وحينما أفاق لم يجد هاتفه النقال.

حزن كثيراً.

" من يصدقني بعد الآن؟ " قال وهو يمسح الدم عن جبهته:

" لقد قُضي عليّ! "

Telegram: @Arab_Books

فكر بالانتحار.

انتظر حتى حل الليل، فقصد الجسر على شط العرب، الذي يصل بين التنومة والعشار، ليلقي بنفسه إلى النهر. رأى هناك رجلاً لا يقل عنه بلاهة. كان ثملاً يترنح على حافة الجسر، وكان على وشك أن يقفز إلى مياه النهر هو الآخر. فأمسك به حنّون وسحبه في اللحظة الأخيرة. نسي أنه جاء لنفس الغرض. هدأ من روعه وراح يواسيه:

" لماذا تريد أن تقتل نفسك يا أخي؟ "

" هل تعرف القراءة؟ " سأله الرجل بدوره. فأجابه حنّون بالنفي.

عندئذ قال:

" ولا أنا.. لكني سأخبرك شيئاً "

وأخرج الرجل السكير هاتفه النقال.

" هذه رسالة مواساة من رئيس الوزراء. كانت مناسبة حزينة على ما أظن. أنا وهو كنا مثل قدمين في جورب واحد! إلا أن أحداً من أولئك الناس المجانين لا يصدقوني. الكل يهزأ بي. الجميع يحسدني! "

أطلق حنّون ضحكة راحت تتردد بين الضفتين. ثم قال بسخرية يبدو أنها لذعت شعور الرجل أمامه:

" تعساً لرئيس وزرائنا يا صديقي. يبدو أنه يرسل البرقيات المجانية إلى عامة الشعب في كل مناسبة. وصدقني، لو كان هناك عيداً للوحل، كالوحل الذي نخوض به الآن، لأرسل لنا تهنئة بهذه المناسبة! "

Telegram: @Arab_Books

" حقاً؟ " قال الرجل المخمور الذي يعتزم الانتحار والشك يملأ عينيه، بينما هو يضيقهما، وينظر إلى حنّون بريبة.

ثم وبحركة مفاجئة، اختطف الرجل الهاتف من يده قائلاً باستعلاء مصطنع:

" اعطني هاتفي أيها الأبله العجوز، لا بد أنك تحسدني! "

محنة

في أحد الأيام كنتُ استحم، فاكتشفتُ ورماً تحت آخر ضلع من جنبي الأيسر.

كان ورماً طفيفاً لا يستدعي القلق، أو هذا ما قاله الطبيب حين زرته بعد ليلة مؤرقة انتابتني فيها الوساوس القهرية والكوابيس المزعجة.

لكن سرعان ما ازداد ذلك الورم بمرور الأيام وصار يؤلمني. وقد برز على نحو بعث الرعب في نفسي. أقلق نومي وأفقدني شهيتي، ودفعني إلى العزلة بعيداً عن أهلي وأصدقائي الذين نصحوني بالسفر إلى خارج البلاد لتلقي العلاج. وفي تلك الأثناء، كان الورم اللعين يكبر بسرعة هائلة، حتى بدا كما لو أنه عضو في جسدي خرج للاحتجاج. وتحول إلى غدة مقززة تفرز النتانات والروائح الكريهة، وراحت تتضخم شيئاً فشيئاً، في حين كنت أنا أهزل تحت وطأتها وتُعاق حركتي ويتضاءل جسدي بسرعة كبيرة حيّرت أمهر الجراحين الذين انهمكوا في دراسة هذه الحالة، حتى توصلوا أخيراً إلى نتيجة مفادها أن الشيء الذي ما زال ينمو في جنبي ليس ورماً أو غدة، إنما هو مسخ.

وبالتالي، لن يكون بالإمكان استئصاله قبل التأكد من أن ذلك لا يشكل خطراً على حياتي.

Telegram: @Arab_Books

هكذا صرت أحمل مسخي معي أينما ذهبت. والغريب أن بدأت الاعتياد عليه والتكيف مع حالات نموه وآلام تضخمه، رغم أنه كان يثقل كاهلي بازدياد حجمه مقابل انحساري وتقزمي المستمر.

وفي أحد الأيام، حينما كنتُ مضطجعاً على السرير في المستشفى ليلاً، سمعت صوتاً غريباً خيّل إليّ وأنا أسمعه أن شخصاً أصدره بينما هو يبتلع شيئاً.

لم أعر الأمر اهتماماً في البداية. لكني ما أن سمعت الصوت مجدداً حتى قلت:

" من هناك؟ "

" أنا " جاء الصوت من مكان ليس ببعيد: هٰذا أنا مسخك! "

" من؟ " صحت محتجاً غير مصدق: " هل قلت مسخي؟! "

" نعم " وفعلاً خرج الصوت من جانبي الأيسر: " ألا تصدق؟ "

" لا أصدق " قلت يائساً وأنا أعلم أن هناك شيئاً ما يكلمني حقاً.

" ولماذا لا تصدق؟ " قال المسخ وأطلق ضحكة ثقيلة ساخرة: " هل تظنني من السليكون مثلاً؟ كلا يا عزيزي، فأنا منك، من لحمك ودمك! "

" حسناً " قلت له: " وماذا تريد مني أيها المسخ العزيز؟ أن أصطحبك للتبول؟ "

" لا شيء " قال المسخ بعد أن تجشأ وتمطق كثيراً: " أردت أن أخبرك بأنك مالح بعض الشيء "

" ماذا؟ " صحت بنبرة غاضبة لكنها باكية في الوقت نفسه: " الآن بدأت تشكو مني؟ "

Telegram: @Arab_Books

ساد الصمت لبضع دقائق ثم سمعت المسخ يتثاءب ثم يشخر.

منذ ذلك الحين، وأنا أرقد عاجزاً عن فعل شيء سوى مراقبة ذلك المسخ الجشع وهو ينهك قواي ويمتص دمي، وينمو له رأس وأطراف وينبت الشعر على جسده، وتتبدى ملامحه بشكل مخيف، وهو يرمقني بشزر ويتلوى ألماً ويشكو مني، قبل أن ننتهي كلانا إلى صالة العمليات في المستشفى.

وفي الوقت الذي ينعم فيه الآن ذلك الكائن الدميم بفترة نقاهة ما بعد الجراحة، انتهيت أنا إلى غدة قبيحة تطفو في محلول داخل دورق قذر في أحد مختبرات التحليل.

Telegram: @Arab_Books

حسيبة

كلما أردت أن أسطو على بيت حسيبة العمياء التي فقدت ابنها الوحيد جاسم في الحرب، يعترض طريقي لص عائد من هناك، فينصحني بالعدول عن محاولتي لسرقتها.

كنتُ أظن أنهم يقولون لي ذلك بداعي عدم إضاعة الوقت في محاولة فاشلة، لأن تلك المرأة العجوز لا تملك ما يستحق المجازفة من أجله. أو أن هناك شيئاً يستحق المجازفة فعلاً، تملكه حسيبة العمياء، إلا أن أحداً منهم لم يستطع الوصول إليه، وفي الوقت نفسه لا يريدونني أن أجرب حظي، فربما استطعت الظفر بذلك الشيء الثمين، الذي قد يكون كنزاً. فأنا أعرف جيداً أمثال حسيبة من العجائز اللائي دائماً ما يكون لديهن شيئاً ثميناً يحتفظن به من الماضي. ذكرى من زفافهن عادة ما تكون عبارة عن قطع ذهبية يساوي وزنها أضعاف ذهب الزمن الحالي.

الأمر المحير هو أني كنت أُلاحظ أن أولئك اللصوص عندما يعودون من بيت حسيبة فإنهم يعودون خالي الوفاض، لا يحملون معهم شيئاً سوى الحزن الذي يمكنني تحسسه في أصواتهم وملامح وجوههم، وفي الدموع التي كانت قد ذُرفت على نحوٍ إن وشى فإنه يشي بأحد الأمرين:

Telegram: @Arab_Books

فإما أن تلك المرأة العجوز ساحرة، استطاعت أن تصرفهم بدهائها وخبرتها وتخدع أبصارهم وتتمكن من إخافتهم بألاعيبها الماكرة. أو أنها تمتلك قوة مؤثرة وقدرة فائقة على الإقناع استطاعت من خلالها من إرعابهم بفكرة العقاب الإلهي. أو أنها تسرد لهم حكاية تراجيدية وتفعل ذلك بحنكة الجدات الحكّاءات اللواتي يستدررن الدموع ويستولين على العواطف، وهي إنما تفعل ذلك لكي تمسكهم من اليد التي توجعهم.

فما الذي يا تُرى تخبئه حسيبة؟

سألت جميع اللصوص الذين سبقوني إلى بيتها، وكانوا يعترضون طريقي. إلا أن أحداً لم يجبني. كانوا يذرفون الدموع فقط، ويهزون رؤوسهم حزناً وأسفاً، كما لو أنهم يفعلون ذلك جزعاً لفقدان شخص عزيز، أو لسماعهم قصة محزنة. وكنت استشعر كل ذلك بينما هو يلقون عليَّ نصيحتهم بألّا أذهب إلى هناك، حيث تسكن حسيبة العمياء.

أنا أعرف أن لها ابناً واحداً فقدته في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ وأنه قُتل مع الآلاف من الجنود جراء القصف الأمريكي على طريق الموت سفوان – بصرة في أثناء الانسحاب الدامي من الكويت، لكن ما الذي يمكن أن تقوله عن ولدها جاسم وما الجدوى من فعل ذلك وهي تعرف أن زوّارها في مثل تلك الساعات المتأخرة من الليل هم في الحقيقة من اللصوص وجدوا فيها صيداً سهلاً لا يكلف الكثير من العناء؟ هل تجلس مثلاً لتنعى ذلك الابن أمامهم كما يفعلن الأمهات العراقيات عادة؟ فيتأثرون هم ويشعرون بالخجل من استغلال امرأة ضعيفة ضريرة ووحيدة وكبيرة في السن مثلها، لا لشيء يستحق سوى السرقة؟ وهل يملك اللص أذناً صاغية ووقتاً كافياً لسماع تلك البكائيات المألوفة التي انتجتها المنظومة الأمومية خلال حروبنا الكثيرة؟

Telegram: @Arab_Books

هل أشفقوا عليها؟ ولماذا حسيبة بالذات؟ هل لأنها عمياء؟ ألم يقوموا بسرقة الكثير من العميان والمتعففين والمتضررين والمعاقين من قبل؟

وما زلت أتساءل عن السر وراء كل ذلك حتى وجدت أخيراً من يخبرني. وهو آخر لص صادفته في الطريق إلى بيت حسيبة العمياء، وكانت تربطني معه صداقة قديمة، ألححت عليه وأقسمت ووعدته بأن لا أفشي السر، هذا إن كان سراً حقاً وليس ترهة من ترهات السُرّاق. فقال لي أن تلك المرأة، رغم عماها، تتمتع بحاسة شم رهيبة. وأنها كانت تستقبل اللصوص ظناً منها أن أحداً منهم هو ابنها جاسم، فقد كانت تأمل بعودته يوماً.

ما أن أحست بوجودي حتى نادت:

- من هناك.. من؟ هل أنت جاسم؟

تلكأت، واضطرت مشاعري وأنا اسمعها تنادي عليّ وكأني ابنها حقاً، ولم يكن أمامي في تلك اللحظة سوى أن أجيبها بنعم. وظننت أن أمري سيُفتضح، إذ لا يمكن لأمّ أن تنسى صوت ابنها. لكنها لم تقل شيئاً بهذا الشأن، بل استقبلتني بحفاوة، وعانقتني وسط بكاء ونحيب. لكنها، وبعد دقائق قضتها بشمّ ثيابي، صفعتني بقوة ونهرتني قائلة بينما هي تهزّ عصاها:

- أنت تكذب.. هذه ليست رائحة ابني.. لا يمكن أن تكون هذه رائحة جاسم!

ثم طردتني.

تأثرت كثيراً، حتى أني بكيت وشعرت بالذنب، وعاهدت نفسي بألّا أسرق ثانية.

عندما سمعت شهادة هذا اللص الأخير علمت من أين تؤكل الكتف.

Telegram: @Arab_Books

يبدو أن جميع اللصوص الذين حاولوا سرقة حسيبة لم يعرفوا كيف يتصرفون معها. لقد فضحتهم روائحهم. إنها روائح الحياة. وبما أن جاسم ميت فلا يمكن لحسيبة أن تتعرف إليه إلا من رائحته الحالية، وهي رائحة الموت، رائحة التراب، تراب المقابر.

إذن، على هذا النحو كانت المرأة العجوز تأمل أن يعود ابنها.

حسناً.. قلت في حينها وعزمت على الذهاب إلى بيتها، آملاً أن يكون لي السبق في سرقتها. لكن، قبل أن أفعل ذلك كان عليَّ أن أزور إحدى المقابر، وبما أن مقبرة الانكليز التي ما زالت رائحة الموت تفوح من قبورها منذ أن شيدها البريطانيون لقتلاهم منذ عام ١٩١٤ تقع على مقربة من الحي الذي أسكنه، فقد مررت بها وأنا في طريقي إلى بيت حسيبة. حدث ذلك عند منتصف ليل اليوم التالي. وقفت على أحد قبور الجنود الانكليز الذين قُتلوا أو ماتوا في أثناء الاحتلال البريطاني للبصرة في الحرب العالمية الأولى. كانت شاهدة القبر ما تزال قائمة ومنقوش عليها اسم الجندي القتيل وتاريخ ولادته ومقتله ومن أي مدينة هو، في حين نُقش في الأسفل أحد المقاطع الشعرية على ما يبدو مذيلاً باسم جون ملتون. فأخذت من تراب القبر وشرعت أعفّر به ثيابي ووجهي لتكتسب رائحة الموت حتى بدوت كما لو أنني ميّت انبعث من بين القبور. ثم قصدت بعدها بيت حسيبة العمياء.

وكما لو أنها كانت تنتظرني، فاجأني صوتها فور دخولي.

" من هناك؟ " صاحت وقد رأيت شبحها يخرج من إحدى الغرف:

" هل أنت جاسم؟ "

" نعم أنا هو يا أمي " أجبت بصوت مرتجف.

Telegram: @Arab_Books

اقتربت المرأة وهي تلتمس طريقها نحوي، تقودها عصاها الخيزران. وحين صارت بمواجهتي، مدت خطمها وراحت تشم ثيابي بلهفة مثل ناقة.

" ابني! " صاحت بنبرة مشفقة، وعانقتني على نحو أشعرني بالندم:

" ابني جاسم! "

فجأة، وبينما هي على هذا الحال، وإذا بها تتراجع خطوة إلى الوراء وتصفعني بقوة.

قالت بغضب وهي تهز عصاها تماماً كما وصفها زميلي:

" لص وغد آخر! "

ثم استدارت عائدة من حيث أتت، وسمعتها تدمدم من هناك وتقول بحنق:

" هذه ليست رائحة موتنا! "

Telegram: @Arab_Books

بيكا

محاسن امرأة أرملة ومعدمة تجاوزت الستين من عمرها، يعرفها أصحاب المكتبات في المدينة، فقد كانت تتسول منهم الكتب، وقد تسرقها أحياناً، وتقدمها كوجبات طعام لابنها الوحيد المصاب بالبيكا، وهو مرض يثير شهية المرء لمواد غير غذائية، كالطين والمطاط والخشب والورق.

أولى بوادر نهمة مسعود حيال الكتب بدأت بعد فطامه، عندما كان وقتها في الثانية من عمره، فقد التهم كتاب لينين "ما العمل" من الغلاف إلى الغلاف. مما أثار حنق الأب الذي طبع بكفه على خد الصغير أول صفعة في حياته، هذا قبل أن يُعتقل فيما بعد ويُسجن بتهمة الشيوعية، مما وفر الفرصة لمسعود الذي بدأ حملته بالقضاء على جميع كتب الماركسية التي كان يقتنيها والده قبل أن يُعدم.

منذ ذلك الحين وهو يقتات على الكتب التي كان يشمها عن بعد، ويعرف فحواها، فطالما أغرته رائحة الورق. يفعل ذلك مثل فأر، حتى صار يستدل عليها ويتعرف على محتواها من روائحها.

فكان يعرف كتب ماركيز من رائحة الدكتاتورية.

ويعرف كتب بورخس من رائحة العمى.

ويعرف كتب شوبنهاور من رائحة العدم.

Telegram: @Arab_Books

ويعرف كتب سارتر من رائحة الوجودية.

ويعرف كتب أجاثا كريستي من رائحة الجريمة.

كانت محاسن، في بداية الأمر، تخشى على ابنها من هذا المرض الغريب، وكانت تتوقع أن تفسد الكميات الكبيرة من ورق الكتب، التي يلتهما بسعادة غامرة وشهية مفتوحة على الدوام، معدته وأمعاءه. إلا أن مكروهاً لم يصب مسعود في النهاية ولم يحدث له شيء. لم يتسمم أو تلتهب أعضاؤه، ولم يشكُ من شيء أبداً، بل على العكس، كانت صحته تتدهور في الأيام التي تمنعه من الكتب لكي لا يأكلها، إذ كان دائم النفور من الأطعمة ولم يسبق له أن تناول شيئاً منها. الأمر الذي سلمت به محاسن أخيراً. على الأقل تخلّصت من عبء توفير الطعام له لمدة من الزمن، قبل أن ينفد مخزون الكتب العائدة لزوجها، وبالتالي توجّب عليها الحصول على مصدر آخر توفر من خلاله طعام مسعود من الكتب.

عملت موظفة خدمات في مدرسة، ثم منظّفة وطباخة في إحدى المستشفيات، وكانت تدّخر من أعمالها تلك ثمن الكتب التي كانت تشتريها لإشباع جوع الابن الذي كانت نهمته للورق تزداد بمرور الأعوام حتى خرجت عن سيطرة وإمكانات الأم المبتلاة. محاسن التي ما زالت تتنقل من مهنة إلى أخرى حتى انتهت إلى التسوّل، خصوصاً أنها تقدمت في العمر وفقدت القدرة على القيام بالأعمال الشاقة.

في حين كان مسعود يكبر ويسمن على نحو جلب المزيد من شظف العيش والمتاعب إلى أمه التي لم تكن تدخر جهدها من أجل الحصول على طعامه الورقي وبأي وسيلة كانت.

صارت ترتاد المكتبة العامة بحجة القراءة، لكنها في الواقع كانت تسرق الكتب. وكانت تقرأ عنوان الكتاب قبل أن تسرقه، فإذا رأت أنه من الكتب المهمة تركته،

Telegram: @Arab_Books

وإذا ثبت له العكس وأحست أنها ستوفر على القرّاء عناء قراءة كتاب رديء يأخذ من وقتهم من دون فائدة إذا ما سرقته، فإنها تضعه في جيب داخلي في ردائها خاطته لأجل هذا الغرض.

وكانت محاسن قد استولت على عدد كبير من الكتب قبل أن يتم ضبطها متلبسة بالسرقة، فحُبست، وكانت ستقضي فترة طويلة في السجن لولا أنها شُملت بعفو خاص نظراً لظروفها المادية الصعبة والحالة المرضية المستعصية التي يعاني منها ابنها.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن أمام محاسن في ذلك الحين سوى الاستمرار بما انتهت إليه، وهو السرقة، لكنها هذه المرة جربت حظها مع المكتبات الخاصة. وكانت قد ضُبطت مرات عديدة، وفي كل مرة كان أصحاب المكتبات يخلون سبيلها بداعي الشفقة. وحينما علموا السر وراء كل ذلك، ولماذا تكلف نفسها مشقة سرقة الكتب بدؤوا بالتعاطف معها، فكانوا يعطونها الكتب الكاسدة أو تلك التي لا يرتجى منها خيراً والمخزنة منذ سنوات طويلة. لكنها تضطر أحياناً إلى سرقة كتاب من هنا وآخر من هناك حسب اشتهاء مسعود الذي صار يفضل كتباً بعينها، كما يفضل المرء طعاماً معيناً دون سواه.

ففي أحد الأيام، ضبط صاحب مكتبة في السوق محاسن وهي تسرق رواية المسخ لكافكا.

" لن ينفعكِ هذا " أخذ الكتاب منها قائلاً بنبرة توبيخ: " أنتِ لديكِ فأر وليس صراصير يا امرأة! "

استل بعدها كراساً من بين كتب مهملة غطاها الغبار في صندوق خشبي.

Telegram: @Arab_Books

" ستروق له هذه " ناولها الكراس قائلاً بتهكم: " مدينة الفئران وعازف الناي هأ هأ هأ! "

ولا يخرج مسعود من البيت كثيراً.

كان يفضل العزلة، وفي العزلة كان يفضل العتمة، وفي العتمة كان يفضل السكون. تزعجه الفوضى في الخارج عندما تتناهى إلى أذنيه أصوات منبهات السيارات، وعواء الكلاب، ونعيب القطارات والبواخر ولغط الصبية في الشارع. وكان يتجشأ بعد كل كتاب يأكله ويعلن عن اسم مؤلفه، كأنه بذلك كان يلوك لحوم الكتاب والشعراء والمفكرين والفلاسفة الذين يتغذى على كتبهم.

وبقدر ما كان يشتهي من تلك الكتب، قد ينفر من بعضها أيضاً، كلّ حسب محتواها. لكنه لا يجد بدّاً من قرضها في الآخر بواسطة ضرسين فأريين قبل أن يقوم بهرسها وأكلها بطريقة إن دلت فإنها تدل على انفتاح شهيته المستمرة لالتهام الورق.

وحدث مؤخراً أن صار مسعود يتفاعل مع ضحاياه من الكتب التي يأكلها، ويتأثر بها، كما لو أن تلك الكتب تملي عليه أفعال أبطالها وشخصياتها وكُتّابها. فإذا أكل كتاباً لأحد المتصوفة تجده أشبه بالناسك الذي يقضي ليله بالتهجّد والتبتّل والتواري عن أعين السلطات خوفاً من القتل والصلب والحرق. وفي حال قرأ كتاباً عن الاستذئاب فإنه يظل يعوي ويخمش الباب الخشبي بأظفاره طوال الليل. فتضطر محاسن إلى البقاء بعيدة عنه قدر الإمكان، ولهذا السبب دائماً ما تكون حريصة على انتقاء الكتب الخالية من العنف. ورغم ذلك، فهي لا تتذكر أن مسعوداً آذاها يوماً.

مرة، أكل رواية زوربا لكازنتزاكي، فاستيقظت محاسن في صباح اليوم التالي على صوت دبكات رقصة غريبة كان يؤديها بسعادة بالغة. ومرة أخرى، أكل رواية

Telegram: @Arab_Books

دون كيشوت لثربانتس، فطلب من أمه أن تأخذه إلى طواحين الهواء. وكان ما يزال يلحّ عليها مثل طفل يتوسل لأخذه إلى مدينة الألعاب، حتى شرعت الأم تصرخ بوجهه وتقول له بينما هي تهزه من كتفيه:

" لا توجد طواحين هواء في البصرة!

لا توجد طواحين هواء في البصرة! "

وكان مسعود يأكل ثلاثة كتب في اليوم الواحد، أي بمعدل كتاب واحد لكل وجبة. إلا أن الأم، ولدواعٍ اقتصادية، صارت تطعمه نصف كتاب في كل وجبة. وكان من بؤس الحال وتعاسته أن وصل الأمر إلى الحد الذي قد يتغدى مسعود من دون أن يأمل بوجبة عشاء. عندئذ، ظهر عليه النحول وبدأ جسده بالتضاؤل وتهالكت قواه وبات واضحاً لمحاسن أن ابنها يتجه إلى الهلاك إذا لم يحصل على غذائه، لكنها أيضاً تبدو يائسة من توفير ذلك الغذاء، إذا تبدو خائرة القوى، معدمة، امرأة عجوز بالكاد تعين نفسها على النهوض كل صباح لتستجدي ثمن كتاب تسد به جوع الابن الذي تكالب عليه الجوع والمرض والهزال على نحو فظيع.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى اختفت محاسن ولم يعد أصحاب المكتبات يرون لها أثراً. افتقدوها، وكانوا يسألون عنها الرائح والغادي، إلا أن أحداً لم يكن يعلم عنها شيئاً، حتى جاء اليوم الذي تناهى إلى أسماعهم فيه خبر موتها. ماتت وحيدة قبل أن يكتشف جيرانها ذلك بعد فترة من الزمن لم تعد تظهر فيها محاسن، وعندما اقتحموا بيتها وجدوها متيبسة في فراشها هناك. في حين لم يُعرف بعد مصير أبنها المريض مسعود الذي اختفى هو الآخر.

جاء العيد الكبير، وبما أن محاسن معدمة، ومقطوعة من شجرة كما كانت تردد ذلك دائماً في أثناء تسوّلها الكتب، لم يزر أحد قبرها أو ينحر لها ذبيحة العيد.

Telegram: @Arab_Books

غير أن هناك من رأى من زوار المقبرة في ضحى ذلك اليوم فأراً.

كان فأراً كبيراً هزيلاً يبحث بقدميه في تراب القبر ويعتلي الشاهدة كل حين.

قمر

كانت مريم تتمنى أن تلد طفلاً نورانياً.

لأجل هذا بدأت تحديقها بالقمر منذ أن علمت أنها حبلى. تصعد إلى سطح الدار في الليالي التي يكون فيها القمر مكتملاً، وتبدأ بالتحديق وهي مبتسمة، متخيلة إلى أي حد سيشبه طفلها القمر المعلق في كبد السماء.

كان هذا هو حملها الأول، لهذا تبدو مرهقة في أكثر الأحيان، تتوجس خيفة من الآلام التي صارت تعاني منها في فترة مبكرة.

وفي يوم من الأيام، ولم يمضِ بعد سوى ثلاثة أشهر، كادت مريم تُسقط جنينها. لكنه بدا أكثر قوة وتشبثاً بحبله السري، فظل عالقاً في بطن أمه التي نصحوها أن تظل طريحة الفراش على ظهرها إلى أن تلد. لكنها لم تلتزم بذلك، فقد كانت تغافل زوجها بينما هو نائم، وترتقي درجات السلم إلى سطح الدار في الليالي المقمرة، تقف هناك كعادتها في مثل هذه الأوقات، وتنظر إلى القمر الطالع هناك، بعيداً في أعالي السماء. يدها على بطنها واليد الأخرى على قلبها. تناغي جنينها مرة وتهمس له، ومرة أخرى للقمر.

بعد تسعة أشهر من الحمل المتعب أنجبت مريم طفلاً كالقمر، تماماً كما أرادت، بل أكثر مما تمنت. فتناست مع طلوعه كل آلام المخاض العسير. وكما لو أنها لم تفقد منه قطرة واحدة، عاد الدم وانبثق في وجهها حتى تورّد على نحو بعث

Telegram: @Arab_Books

الطمأنينة في نفس زوجها الذي لم تزل نذر الشؤم تراوده بشأن هذه الولادة، حتى تفتحت أساريره أخيراً ما أن رأى زوجته تستعيد نظارتها وجمالها.

كان طفلاً منيراً على نحو خالت معه القابلة أن نوره سيصيبها بالعمى، وتعجّب منه الأقراب والجيران، وعدّ بعضهم ذلك علامة تشي بأن هذا الطفل الذي صاروا يدعونه (قمر) سيكون من أصحاب الكرامات في المستقبل. فوصل الخبر إلى أسماع كل امرأة عاقر ولم تنجب بعد، فبدأن بالتهافت على بيت عطية النجار وزوجته من أجل التبرك بقمر، الطفل المنير.

وكانت مريم، في تلك الأثناء، ما تزال في طور النفاس ولم تتعافَ من كل أوجاعها حتى ذلك الوقت، بل إنها عادت للانتكاس من جديد، وكانت حالتها تزداد سوء يوماً بعد يوم، حتى وُجدت في صباح أحد الأيام، بعد مضي أسبوع على وضعها حملها، ميتة في فراشها. كانت منكبة على وجهها، ولم يكن ثمة أثر لقمر في الغرفة. بحثوا عنه في كل مكان حتى عثروا عليه أخيراً تحت أمه التي أدركها الموت في الوقت الذي كانت ترضعه من صدرها. وكان في الرمق الأخير حين قلبوا جثة مريم ووجدوه هناك وقد استحال لونه إلى الزرقة، لكنه سرعان ما عاد ليضيء من جديد.

منذ ذلك اليوم وعطية النجار الذي جزع لفقدان زوجته أشد ما يمكن أن يتملك المرء من جزع وحزن، وهو يتشاءم من قمر وينظر إليه كما لو أنه ينظر إلى مسخ، نظرة مريبة لا تخلو من كراهية، كما لو أنه هو من انتزع روح مريم وحرمه منها، فقد عدَّه سوء الطالع أو نذير الشؤم الذي طالما رافقها طوال فترة حملها حتى نال منها أخيراً. لذلك قرر إبعاده، إذ عهد به إلى جدته التي تلقته كما تتلقى هدية إلهية، رغم أنها صارت تعاني من صعوبة الاهتمام به وهو على هذا الحال، فقد كانت تضطر إلى ارتداء قناع واقٍ، كالذي يستعمله الحدادون في اللحام، لتتفادى نوره الصاعق، وتتمكن من الاعتناء به ورعايته، إطعامه وتحميمه وتغيير حفاظاته.

Telegram: @Arab_Books

على هذا النحو كبُر قمر وترعرع في بيت جدته لأبيه حتى سن العاشرة. كان من دون رفقة تقريباً، إذ لم يجد في صحبة أولاد القرية ممن هم في عمره ما يسرّ، فإما السخرة من لونه المفرط في الشحوب في أثناء النهار، أو تلك النظرة التي يلقونها عليه، فيبدون وقتها كما لو أنهم يحدقون بمخلوق فضائي هبط عليهم من كوب آخر.

" من أين أتيت أيها الشبح؟ " يقولون له.

" هل أنت من المريخ؟ " يسألونه.

" هل توحمت أمك بمذنّب؟ " يسخرون منه.

كانوا يقرصونه أحياناً ليروا أن كان يتألم. وفي أحد أيام الصيف عندما كانوا يرتادون الأنهر للسباحة والعوم، جردوه من سرواله ليروا أن كان لديه عضواً كالبشر.

أما في الليل، حينما كان يخرج مع جدته في بعض الأوقات، فإن أغلب المارة يتحاشونه بسبب قوة النور الساطع التي ينبعث منه. كانوا يسمّونه تندراً عمود الإنارة المتنقل. إذ لم تنفع معه حتى أخشن الثياب وأكثرها سمكاً، والتي دائماً ما تجبره الجدّة على ارتدائها، الأمر الذي كان يزعجه على الدوام.

ومساء أحد الأيام بعد الغروب، عندما كان قمر في عامه الثاني، غافل جدته وخرج إلى الشارع للمرة الأولى. فرأته بعض الكلاب السائبة التي تجوب الحي في مثل هذه الأوقات، فوجدت فيه قمراً أرضياً بالإمكان نهشه، وليس النباح عليه فحسب، كما هي عادتها في الليالي المقمرة. إلا أن بعض المارة انتشلوه من أنيابها. ومنذ ذلك الحين وجدّته تحرص على منعه من الخروج ليلاً، إلى أن ماتت وهو في عمر العاشرة.

Telegram: @Arab_Books

هكذا وجد الفتى قمر نفسه مجدداً في بيت أبيه الذي كان قد تزوّج بعد سنتين من وفاة زوجته وأنجب ستة أولاد ما بين ذكر وأنثى. هناك صار الطفل المنير عرضة للإهمال والمعاملة السيئة من قبل زوجة الأب المتعجرفة، التي بدأت تتضجر من نوره الساطع فعمدت إلى عزله في غرفة مظلمة، ثم حبسه لكي لا يخرج من البيت ليلاً ليضرّ أعين الناس بنوره المؤذي، خصوصاً بعد ورود عدة شكاوى من الأهالي في القرية.

وكانت زوجة الأب تلك ترمي فضلات ما تعدّه من طعام. توبّخه دائماً وتتركه لعبث أولادها ومشاكساتهم المنزعجة التي لا يملك إزاءها سوى الصمت خوفاً من غضب أبيه الذي ما زال ينظر إليه بتشاؤم بعد موت زوجته. حتى أنه لم يحاول أن يكف عنه أذى زوجته المتسلطة، رغم علمه بممارساتها التي وصلت إلى الحد الذي لم يجد فيه مانعاً من ضربه إذا ما اقتضت الضرورة لأن تفعل ذلك. وكانت الحشرات الطائرة، وخصوصاً البعوض يحوم حوله وفوق رأسه، وينتحر على وجهه طوال الليل حتى امتلأ جسده بالدمامل وكاد يُصاب بالملاريا، عدا الهزال والحكة الشديدة والتعرّق ونوبات الغثيان والإغماء التي تنتابه طوال الوقت.

وقد استمرت معاناته على هذا النحو، من دون أن يرف لأحد جفن أو يرق لحاله قلب، حتى تمكنت الزوجة من إقناع والده بإخراجه من البيت بحجة خوفها على أولادها منه. فطرده الأب في ليلة مظلمة.

في تلك الليلة، لم يستطع قمر الإفلات من الكلاب السائبة، التي راحت تطارده وتنبح وراءه. فلجأ إلى عمود إنارة كان الأولاد المشاكسون قد أعطبوا مصباحه بمقاليعهم منذ فترة طويلة. فتسلقه إلى المنتصف، في حين ظلت الكلاب تنبح عليه وتتقافز حوله طوال الليل.

Telegram: @Arab_Books

مع بزوغ شمس اليوم التالي، لم يعد لقمر أثر في الجوار، ولا في أي مكان، بما في ذلك عمود الإنارة.

إلا أن سكان الحي لاحظوا، في الليالي التي تلت اختفاءه، أن مصباح عمود الإنارة عاد ليضيء مجدداً، خصوصاً في الليالي المظلمة حين لا يكون هناك قمر.

Telegram: @Arab_Books

الفهرست

المستشفى التشيكي.. 5

الطفل الطائر.. 10

المتهجي.. 15

شعرية لانتشو بلحم البقر.. 20

التلويح.. 28

المتسولة.. 32

المغازلة.. 35

بيضة الديك.. 41

الوقوف.. 46

تهنئة من رئيس الوزراء.. 51

محنة.. 56

حسيبة.. 56

بيكا.. 64

قمر.. 70

Telegram: @Arab_Books

صدر عن دار شهريار للطباعة والنشر

روشيرو	حسين رشيد	قصص قصيرة	٢٠١٧
جثة في بيت داكن	مازن المعموري	شعر	٢٠١٧
أصوات من هناك	نعيم آل مسافر	رواية	٢٠١٧
طريق لا يسع إلا فرداً	عبد الزهرة زكي	نقد	٢٠١٧
التداخل النصي في الرواية العراقية	أماني حارث الغانمي	دراسة	٢٠١٧
الشعراء نقاداً.. المفهوم والتمثّلات	د. أماني حارث الغانمي	دراسة	٢٠١٧
رواية الذاكرة وذاكرة الرواية	صدّوق نور الدين	نقد	٢٠١٧
بلاغة الجمهور.. مفاهيم وتطبيقات	د. صلاح حسن حاوي د. عبد الوهاب صديقي	دراسات محكّمة	٢٠١٧
النقد القصصي في العراق	د. فاهم طعمة أحمد	دراسة	٢٠١٧
النقد وآفاق القراءة	د. علي متعب جاسم د. فاهم طعمة أحمد	نقد	٢٠١٧
مهب الرمية الغامضة	وليد هرمز	شعر	٢٠١٧
كتاب الجنوب.. مختارات شعرية	تحرير	شعر	٢٠١٧
النوم إلى جوار الكتب	لؤي حمزة عباس	نقد	٢٠١٧
البلاغة الثائرة.. خطاب الربيع العربي	د. سعيد العوادي	دراسات محكّمة	٢٠١٧
العقرب على أدراج سلّم محطة انديمشك	حسين مرتضائيان آبكنار ت: حسين طرفي عليوي	رواية	٢٠١٧
ماذا نفعل بدون كالفينو	ضياء جبيلي	قصص قصيرة	٢٠١٧

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

شهريار.. حكاية في كتاب

يقدّم ضياء جبيلي في مجموعته القصصية هذه (ماذا نفعل بدون كالفينو)، وهي المجموعة الفائزة بجائزة الطيّب صالح في السودان للعام 2017، نصوصاً تعدّ استمراراً لما قدّمه في أعماله الروائية، ابتداءً من "لعنة ماركيز"، مروراً بـ"بوغيز العجيب" و"تذكار الجنرال مود" و"أسد البصرة"،لكنه في هذه المجموعة التي تضمّ أربع عشرة قصة قصيرة يوغل أكثر في الغرائبيات، فيخلق عوالمه الخاصة التي تستند إلى واقع ربما لا يعيشه إلا هو، واقع كل ما فيه ينحى باتجاه اللامعقول، وهو ما نراه في قصص مثل "الطفل الطائر" و"بيضة الديك" و"تهنئة من رئيس الوزراء" وغيرها من القصص، التي حاول جبيلي تبويبها بطريقة تبدو وكأنه يعيد قراءة حياتنا العراقية بطرائق كتابة الحكاية الشعبية أو أسطرة شخصيات تبدو حقيقية.

ما يثير القارئ في هذه المجموعة أن ضياء جبيلي يسرد قصصه وكأنها قصص يرويها قصّخون على العامة من الناس في مقهى شعبي، قصص يخيّل للمستمع إليها أنها حدثت بالفعل، وهذا الأسلوب يرتكن إليه جبيلي في تقديم هذه النصوص بلغة بسيطة، لغة الحكواتيين فعلاً، وبأسلوب شيّق وبسيط حدَّ المتعة.

إنها مجموعة تعيد إلى الأذهان ما افتقدناه من حكايات جدّاتنا، وهنَّ يجمعننا حول موقدٍ ذات شتاءٍ منسيّ، فلا نستطيع غلق أفواهنا وهن يحكين، إلا بعد أن نعرف نهاية تلك الحكايات.

الناشر

ISBN 978-1-7732232-9-2

safaadhiab@yahoo.com
العراق، البصرة، العشار
009647730800453